اليهودي الأعرج

رواية 2020

هاني السالمي

مقام
للنشر والتوزيع

الكتاب: رواية اليهودي الأعرج

المؤلف: هاني السالمي

الناشر: مقام للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2020

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 9789776.750326

maqam for publishing and distribution

القاهرة، جمهورية مصر العربية

هاتف: 00233839055

متحرك: 00201112750799

البريد الالكتروني: maqam.publisher@gmail.com

جميع الحقوق وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

[ماجد الراحل، صديقي آسر، أبو الليل، جابر فاروق، الشيخ حسين، نسيم الكرتاوي، خالي رفيق، الجارة أم رامي، فاتن بنت الناظر، الشيخ عادل، دانييل ونسي، آفي موشي، الأعرج عزرا، كوهين نفشي، المهندس حسين، شاهر والحمار، الفرنسي ليوني، ابيارزوكوش، شوندر، سيد محسن، أبو الفضل، الهاليون، أحمد الاحمر، هشام حمدي، سارة الصغيرة، الزوج وسيم، رامي بنورة، جبر النادي، الشحات أبو كرش، سعد أبو حجر، أبو طنطا، معالي حسن]

كانوا حقيقة، وفي الرواية مجرد خيال

****

لفتة

[ما بين الأقواس رأي الكاتب، ودون ذلك من خيال البطل غسان]

****

لم أكن مهتماً بالأوراق ولا بالصور القديمة ولا شهادات الميلاد ولا بقايا الملابس، لكن كنت أهتمّ بإصلاح السلاح ومخلفات الرصاص، كنت أجمع الفوارغ، وأعيد وضع الكبسولة [قطع مدورة نحاسية بها نقطة حمراء في المنتصف تساعد على إشعال البارود داخل جسد الرصاصة فينطلق المقذوف الصغير بسب ضغط الغازات بعد الاشتعال..].

لقد جلب بعض المهربين كيلوجراماً من البارود الأسود الناعم، بواسطة الأنفاق الواصلة بين مدينة رفح وشرق مصر، كان رخيصاً جداً، فاشتريته بعد أن استعرت ثمنه من أمي (طبعاً بدون علم أبي).

أعيد تركيب حبات الرصاص حتى تكون جاهزة للزبون، وأجمع القنابل المعطلة، وأضع لها صاعقاً بعد أن أحشوها بالبارود الطازج وبضع قطع الحديد الصغيرة؛ لتكون لها فائدة كبيرة وقت الانفجار.

لديّ مئات القطع الحديدية لبقايا المسدسات وبنادق الصيد، حيث كنت ماهراً في إصلاح جسدها وتركيبها...

يوجد في بيتنا غرفة عبارة عن ورشة بها العشرات من مقاسات المفكات المختلفة، ومقدح صغير نوع (بوش) بلون أخضر جيشي، كما قيل ليّ: هذا المقدح سرق من معسكر للجيش عن طريق عامل حيث وصل إلى أبي، وكشاف ضوئي وطاولة خشب طويلة لزوم العمل، ومطرقة وكماشة قديمة والكثير من المسامير.. كل هذه الأدوات تعود لأبي قبل حرب الخليج مذ كان يعمل في إسرائيل، وكان كلما أنهى العمل في مكان، يجلب الأدوات الخاصة بالشغل. كان أيضا يجلب الكثير من أدوات المطبخ المميزة والأحواض البيضاء (مغسلة)، وبلاط السيراميك وخراطيم مياه، وأدوات سباكة وقطع نحاس، وعلب فارغة لها أشكال جميلة مزخرفة، وتحف وبراويز خشبية بها لوحات زيتية. وحين يفرض الاحتلال منع التجوال

على المخيم ويمتنع العمال عن الذهاب للعمل داخل إسرائيل؛ فتتراجع الحالة المادية لأبي ويقوم بجمع كل هذه الاشياء ويحملها على كارة يقودها حمار، ويذهب بها للسوق يوم السبت زاوية بيع (الرابش) [يطلق عليها الرابش نسبة للأسواق الإسرائيلية التي تتعامل مع العرب.. بمعنى الأدوات المستعملة] وهذه الكلمة كنا نستخدمها في المخيم لوصف الإنسان المهمل لملابسه وعقله (هذا رجل رابش). يبيعها أبي ويظل ينفق المال حتى يعود للعمل... وحين فقد أبي عمله صار كثير الجلوس بين أزقة المخيم، ليدخن ويفتي بالسياسة وبنساء الحي. في المناسبات الدينية كان يتحول إلى مفتي المخيم، وأهم مهارته في الفتوى هو أثناء عيد الأضحى عن نوع الأغنام والماعز والخراف والأبقار التي تجوز للذبح، وكيفية توزيع لحوم الأضحية. لقد كان خبيراً في نوع السكاكين التي تستعمل للذبح، رغم خبرته الطويلة، أبي لم يضحِ أبداً بعد أن فقد العمل داخل إسرائيل.

في يوم ما وبعد ترجي المسئولين حصل أبي على معونة مالية من الشؤون الاجتماعية قرابة مائة دولار شهرياً وأكياس من الطحين وعلب السردين، والزيت، والأرز، وبدأت عائلتنا تتكيف على هذا الحال.

لكن لإنصاف أبي حين كان يعمل ويجلب الكثير من المال؛ كان يشتري خروفين للعيد، وحين تسأله أمي: ألا يكفي واحداً للذبح؟ يقول: واحد دفعت ثمنه، والآخر دفع ثمنه معلمي اليهودي (مسؤولي) في العمل.

تقول له أمي: هم اليهود بضحوا؟ يرد: المعلم يهودي عربي من المغرب، يصمت الكل. والمهم اللحم ورأس الخروف والعظم، لكن الكرشة والكبد والطحال والأمعاء كان يرسلها أبي لأخته، يحب أخته كثيرا أكثر شيء في هذا الكون... ومن المضحك في هذه الحالات أن أحد المقاولين اليهود طلب من أحد العمال أن يشتري له خروفاً كبيراً ويذبحه أمامه ويوزعه على الفقراء، العامل وهو يذبح الخروف دعا الله أن يتقبل هذا الخروف عنه وعن أولاده، وقتها سمعه اليهودي وقال: (الربُ يعرف مَن دفع ثمن الخروف). الكثير من القصص كانت تحدث مع هذه المهنة التي ابتكرتها في المخيم... منها أن جاءني جارنا الذي يعمل في جهاز أمني بعد اتفاقية أوسلو (انخرط الكثير من الشباب في جهاز الشرطة والأمن) ومعه كيساً كبيراً به عشرات الطلقات لسلاح كلاشنكوف، وأخبرني أن البارود داخل الرصاص فَقَدَ حرارته (مبرّد) بكل ثقة واستعجال قلت له: ضَعْ الطلقات في رملٍ ساخن لمدة عشرة دقائق، البُرودة الموجودة في البارود

ستتبخر! جارنا لم ينتظر اكمال حديثي وانطلق، وأحضر رملاً وسخَنَّه كثيراً حتى تجمّر، ودفن الطلقات في الرمل، ولم يمر سوى دقيقتين، وصار انفجار في الرصاص وأخذ ينطلق بشكلٍ عشوائي في عدة اتجاهات وصار أهل بيته يصرخون من صوت الأزيز الذي يرتطم في الجدار والأبواب والشبابيك.

وقتها لم نسمع عن أية إصابات، وهرع أهل المخيم لمكان الصوت، (لكن الجميع كانوا بخير) لم يصبْ أحدٌ بأذى، وفي المساء جاء جارنا غاضبا ولكمني في وجهي، وقال: كدت أن تقتل أهل بيتي من فكرتك السيئة.. حاولتُ أن أقول له: أنت لم تصبر عليَّ في إكمال فكرة التسخين، لكنه كان يشبه الثور الهائج فركضت من أمامه.

والقصة الثانية الأكثر حزناً هي.. كان يرافقني صديقي ماجد في البحث عن البقايا وقد تعلم بعض الأمور في إصلاح الطلقات النارية، وبعض القنابل اليدوية. غاب عني ماجد فترةً طويلةَ وقتها لم أعرف السبب؟ في إحدى المرات رأيته يرتدي ملابس سوداء وحذاءً عسكرياً بني اللون، وذقنه طويلة، سألته: أين اختفيت؟ رد: الآن أعمل مع جهاز عسكري مقاوم، وقد

نحتاجك في إصلاح بعض الطلقات.. فقلت له: ولماذا لا تصلحها أنت؟ رد: أنا أصلح قنابل الهاون! حينها صار قلبي يدق مئات الدقات في اللحظة الواحدة خوفاً وقلقاً، ووضعت يدي على رأسي، وملامح وجهي تعكرّت: الهاون هذا صعب سوف ينفجر بك إن لم تكن حذراً، ابتسمَ في وجهي وغادر..

لم يفت سوى شهر أو أقل سمعت أنه مات وهو يصلح قاذفة الهاون، فهرعت لثلاجة الموتى في المشفى، وفتحت باب الثلاجة، فلم يتبقَ من وجهه سوى أسنانه، تذكرتُ ابتسامته في آخر لقاء...

تطورت مهنتي الجديدة في المنطقة، وصرت خبيراً في تشحيم السلاح وتخزينه، واشتهرتُ بين أصدقاء السلاح، وتجار النحاس والخردوات، وكل شيء له علاقة بالسلاح وخاصة بقايا المسدسات، والطلقات النارية الفاسدة، وصاعق القنابل اليدوية، وكنت خبيراً أيضاً في صناعة الزنبركات لمسدسات الحلواني المصري. [هذا المسدس انتشر في قطاع غزة، منذ عودة القوات الفلسطينية إلى قطاع غزة والضفة بعد اتفاق أوسلو (غزة _أريحا) أولاً..] حيث وُزع لرجال الأمن في السلطة الوطنية، هذا المسدس

عند استخدامه يسخن ويصير يقذف الطلقة عيار9ملم دون إطلاق المقذوف (رأس الطلقة)

زادت شهرتي بين رجال الأمن لحل مشكلة هذا المسدس، فأنا أوجدت الحل! كنت أصنع ثقباً إضافياً في المسدس لزيادة فرصة التبريد...

زادت المشاكل في قطاع غزة، لا يمر يوم وإلا يحدث تبادل لإطلاق النار بين الفلسطينيين، وجيش الاحتلال على الحدود الشرقية، وأمام الحواجز عند أطراف المستوطنات، حينها زادت فوارغ الطلقات وزادت أرباح تجار النحاس والخردة، وأنا كنت أستفيد مالياً من هذه المواجهات.

أصبحت العائلات عندنا في قطاع غزة تشتري وتخبئ الطلقات النارية، وصار اقتناء السلاح شيئاً هاماً لكثير من الرجال، أصبح السلاح ملازماً لكل بيت، وقد أقدم بعض الرجال على بيع مصوغات نسائهم الذهبية لشراء قطع سلاح، مع مرور الوقت أصبح السلاح رخيصاً جداً بسبب جلبه بكميات وفيرة عن طريق مصر أو إسرائيل، وارتفع سعر الطلقة الواحدة، وفوارغ الطلقات صار سعرها غالي، لأنه يمكنك تغيير كبسولة الطلقة.

[كَثُرت حالات القتل دون قصد، الكل يريد أن يجرب استخدام السلاح، وأول طلقة هي الكارثة]. أحد جيراننا كان لاعب تنس مشهور في قطاع غزة وحصل على وظيفة في جهاز أمنى، وقد استلم مسدساً صناعة مصرية سيئاً، وكان يضعه دائماً على وسطه، [أصبح السلاح جزء من طبيعة رجال المخيم لزيادة الوسامة والرجولة] وأثناء تنظيف مسدسه خرجت رصاصة خاطئة فقتلت طفلته، وقتها لم يُعتقل ولم يُسحب منه المسدس ولكن اكتفى القانون بجملة (يكفيه حزنه) وهذا أكبر عقاب...

أما ابن عمي أمضى في سجون الجيش الإسرائيلي مدة خمس سنوات بتهمة إلقاء قنبلة متفجرة محلية الصنع على ثلة من الجنود وهم يتجولون في المخيم وقت إنتفاضة الحجارة. وحين خرج من السجن بداية اتفاق أوسلو، حصل على وظيفة في المخابرات العامة واستلم سلاحاً صناعة أمريكية (جلوك أسود) كان مسدساً طويلاً وأنيقاً يُدِخل في قلبك الرهبة والخوف، لقد وضعَ المسدس في غرفة نومه، فحملته زوجته الصغيرة، وصارت تصوب على زوجها وتقلد دور الشرطي واللص وتقول: قف مكانك وإلا أطلقت النار عليك، لم تنتبه أنه محشواً فداست على الزناد، فقتلته... أنا كنت في بيت العزاء، والدته كانت تردد كلمة واحدة ((يا ريت ما طلع

من سجن اليهود)).. صارت الزوجة تركض في الشوارع، وقيل أنها أصيبت بالجنون، وتركت خلفها ولداً وبنتاً للريح، لحد اللحظة لا أعرف ما هي نهاية زوجة ابن عمي...

****

في الصباح الباكر جداً وقبل خروج أولاد وبنات المخيم للمدارس وحتى قبل الباعة المتجولين (بائع المنظفات و الكلور الأصفر والفونيك والصابون الإسرائيلي)، أحد الباعة من المناطق الشرقية الزراعية لعائلات كانت تسكن قطاع غزة قبل الهجرة؛ يملك صوتاً جميلاً حين ينادى للبيع، وفي الليل كان يعمل مغنياً في الحفلات الشعبية واقفاً خلف المغني الأصلي ويردد الأغاني، ومن الباعة أيضاً بائع البطاطين والبساط الملون وكان من منطقة شمال قطاع غزة، يطلب في بداية الأمر مبلغاً كبيراً في البطانية الواحدة، ولكن بعد حوار طويل معه والضغط عليه؛ تشتري منه القطة بثمنٍ بخس، يبيعك البطانية ثم يهرب من المكان، أما بائع الحليب واللبن الرائب وهذا من منطقة أهل البلد ويطلق عليهم (أهل البلد) لأنه سكنوا وسط البلد حيث العمران والتقدم، وهذه العائلات التي بنت قطاع غزة قبل الهجرة، وتتحكم في أمور الدولة، فالحليب واللبن من أهم الأغذية عندنا في المخيم وكان رخيص الثمن، كان أبي يحب اللبن الرائب ويشرب منه أكثر من لتر على نَفسٍ واحد، كان حامضاً ولذيذاً جداً، ومن الباعة أيضاً كان رجل يبيع المثلجات على عربة يقودها حمار في وعاء

سميك من الصفيح اللامع يضع بداخله العصير المثلج (البراد) بعدة ألوان وخاصة اللون الأصفر، (حين تحصل على كأسٍ من البراد تشعر بالبرودة طوال اليوم في نهار الصيف الحار جداً).

قبل هؤلاء كلهم طَرقَ باب بيتنا صديقي آسر بقوة، وبصوت عالٍ ينادي: غسان، غسان، غسان، فَتَحتْ أمي باب غرفتي بعجلة وعنف وقالت: يوجد أحد عند باب البيت يريدك، ويصرخ بصوت عالٍ!

كان النوم يحتلني بعنف وبالكاد فَتّحتُ عيوني والنعاس يشدني إلى الفراش، لقد كانت ليلة طويلة مرهقة في العمل بدقة لإصلاح عشرات الطلقات لسلاح أم 16، هذه القطعة الوحيدة الموجودة في المنطقة وحسب القصة المشهورة عن هذا السلاح، قد سرقها أحد تجار المخدرات الإسرائيليين من أحد جنود الحدود والذي كان يتعاطى، وباعها لرجلٍ من المهربين بمبلغ غالٍ، وحينها أحضرها بدون طلقات، فوعده الإسرائيلي أن يحضر له طلقات، بعد عدة أشهر أحضر كيساً قطنياً محشو بعشرات الطلقات لكنها مُطعَّجة، ووصلت ليّ عن طريق جارنا أبو الليل، لأعدلها وأصلحها، لكن الذي أعلمه أن أبو الليل كان منتمياً لأحد التنظيميات

العاملة في انتفاضة الحجارة، كان ينفذ قرار الإعدام للعملاء في المخيم، كان كل ما يملك هذا التنظيم هو قطعة سلاح كارلو ستاف قديمة، كان المسلحون يتسابقون على قتل المشبوهين، لكن أبو الليل الوحيد الذي كان موكلاً بحمل هذا السلاح لأنه طويل وأسود ومفتول العضلات، ولا يتكلم وظل وقتاً طويلاً كتوماً حيث سُمح له حمل السلاح، بعد أن كان يحمل سكيناً وساطوراً، والذي أعلمه أن أبو الليل عمل في تنظيف مُصَلّى المخيم، ومنذ فترة طويلة ترك العمل والقتل وصار يتردد على المُصلى كثيراً، وربَى ذقناً طويلةً، لقد كانت جيوب جلبابه مليئة بالحلوى والعطور الزيتية، وكلما قابل طفلاً أو شيخاً يعطيه قطعة حلوى ويقول له: ادعو أن يسامحني الله، ويمسح العطر في أكُف الرجال ويطلب نفس الطلب...

لا أعلم كيف وصل الرصاص له وجاء لبيتي طالباً مني اصلاح الطلقات ووعدني بمبلغٍ مجزٍ، كان المبلغ مغرياً؛ فسهرت طوال الليل لأصلحها، كانت مُهشّمة ومُطعّجة والبارود في بطنها بارداً، أصلحتها وجهزتها لأبي الليل...

فَتحتُ باب البيت، إنه صديقي آسر [آسر صديقي الجديد الذي حلّ بعد رحيل ماجد في هذه المهنة] فهو نظيف المخ في أي شيء يعمل وخاصة الأسلاك النحاسية، والأسلاك الدقيقة، وكان ماهراً في قطع وتوصيل الإنترنت، وأيضا يقوم بجمع العملات القديمة، ويشتري ويخزن عُلَب التونة (السردين) ذات اللون الأصفر، يتاجر بالشمع والكبريت والقدّاحات.

- ماذا تريد يا آسر في هذا الصباح، يبدو أنك لم تنم لحتى الآن؟

- بسرعة بدّل ملابسك، البارحة الدبابات وصلت حتى مستشفى الأوروبي شرق القطاع وهدمت بيتاً، وتطورت المواجهات، وسمعَ الناس صوت إطلاق نار كثيف وقذائف، ودَوَتْ طائرات الهليوكوبتر وبرزت أصوات سيارات إسعاف، لقد انتشر الجنود تحت وهج القناديل المضيئة التي غَطّت سماء المنطقة...

- كل هذا حدث في ليلةٍ واحدة، وكيف عرفْت بذلك كله؟

- سمعت كل شيء بواسطة جهاز اللاسلكي طوال الليل وأنا أتنصت، لقد عدّلت الإرسال على موجة الجيش.

- لكن وما يهمني أنا في الأمر؟

- كيف لا يهمك الأمر! أقول لك: كانت الليلة ساخنةً، أنا متأكد أنه بعد انسحاب الجيش تركوا كنزاً من الطلقات الفارغة وبقايا القنابل المسيلة للدموع وقنابل صوت، كما سمعت أنهم فَجّروا بيتاً لرجلٍ من المقاومة، أنا متأكد أننا سنجد أشياء كثيرة، أنه كنزٌ يا غسان هيا...

أثار آسر حفيظتي وشهوتي بكلمة كنز، فقلت له: انتظرني لأُحضِر عِدة العمل...

****

[انكشاف] ساق خشبية كأنها ركضت من صاحبها أو تركها، وأكملَ مشوار الحياة بدونها، الغبار يطفو أعلى المكان، زجاج السيارة تَحوّل للوحةٍ مغبرة شهية للكتابة، بإصبعك الشاهد يُمكنُك كتابة ما تشاء.. اكتب اسمك أو ارسم قلوباً للحب أو اكتب حِكمة اليوم!

كل تفاصيل المكان يعلوها الغبار، الأشياء كأنها قبيلة من الهنود مطلية باللون الرمادي، تدور حول النار لكن بصمت، سوى صوت الأشياء المتأخرة في السقوط. وتظل مندهشاً منكمشاً مما ترى! كأنها صفحات بوحٍ حزينة فارغة، لا تملؤها كل تلك الثرثرة التي تعلمتها في مدارس الوكالة أثناء الاستراحة. أنت في اللحظة فارغٌ وروحك فارغة إلا من سطور الدمع التي ستذرفها بعد حوار مع نفسك، أنك لا بد أن تبكي الأشياء كما تبكي البشر حين يرحلون.. الصمت يتحكم حتى في شهوة جلدك على الحكّة بعد لدغة بعوضة نشيطة في ليلة صيف، في لحظة أنين الأشياء المتكسّرة من جداران ومن أمعاء الشوارع التي ظَهرت، يحتاج الكلام إلى حروفٍ غير تلك التي أعتادها، إلى كلمات لا تشبه التي سمعتها.

[بعد القصف: تحتاج إلى معانٍ أعمق من تلك التي أستطيع الوصول إليها، أين الكهف الذي ألوذ به من صخب البوح وضجيجه؟ الكهف يشبه مكان نوم أصحاب الكهف، ويأتي أحدهم يُقلّبك صباحاً ومساء، سأغادر حصار اللغة، وأتمرد على قيود النطق، وأمضي راكضاً إلى مناطق الصمت الرحبة الخضراء، مع الخرساوات اللاتي يلوحن بأيديهن في الهواء؛ ليعزفن كلاماً مفهوماً لهن ونحن أغبياء، لا نجيد إلا التبسم في وجوههن].

لماذا بعد القصف تتحرك في المكان على أطراف قدميك؟ يبدو خوفاً من أن تدوس أثير الأرواح، الجدران لها روح وأثيرها ما تبقى منها، والملاعق والصحون وبراد الشاي ومقلاة البيض كلها تحتفظ بصورة مالكها، وروحها طقوس وطِباع مالكها قبل ممارستها.

في هذه اللحظة المرعبة، السعادة أصبحت كالخراف تهرب من المكان، وكأن الظّلال ترسم ذئاباً بذيول كثيفة الشعر، لأن الحدث مأساة، انهارت قوى الكلمات، وكلما أغريتُ نفسي بالنهوض من جديد خذلتني أقدامي.

جلستُ على خشبةٍ من بقايا خزانة كانت تجاور الباب في إحدى الغُرف، صديقي آسر لم يعجبه جلوسي وذهولي، مرة يلوّحُ ليّ بيده: انهض هيا

للعمل، ومرة يصرخ: هيا لَملِّم ما تريد قبل أن يحضُر تجار الخردوات بعرباتهم الطويلة، وآخر مرة جاء وهز كتفي بعنف: غسان حقيبتي امتلأتْ من أسلاك النحاس، هيّا تَحرّك...

(كنتُ في عالم آخر وسقطتُ في لحظة الحضور من هزة آسر لكتفي).

حَملتُ القدمَ الخشبية في يدي، وصرتُ أركض في المكان كجائعٍ دخل حقلاً مزروعاً بكل الفواكه، يتنقّل من شجرةٍ إلى شجرة، كلّ الثمار ناضجة والمعدة خاوية... تبخّرتْ مأساة المكان وزادت شهوتي في جمع البقايا، وكان في الحنايا لوعة، وهي أثقل من أن تَحملها على ظهرك أو بكيسٍ من القماش، ولو شاركتْ اللوعة والقهر والخردوات والبقايا التي جمعتها من القصف؛ لزاد وزنها.

احتياجك لما تحمله الآن يَجعلك تهرب من طنين العتاب، ولسعات اللوم... والحزن على هذا المقصوف..

ريش الدجاج البنيّ المتطاير فوق أسطح البيوت النائمة يترنح للهبوط على تراب الحطام المنتشر كحبات قمحٍ بعد الحصاد..

سُكان الشارع تركوا وَقار الملابس وركضوا، من النادر جداً أن تظهر النسوة في هذا الوقت، لكن ما حدث في اللحظة يجعلك متردداً أن تركض أو تقف! مازال أثر الصوت الذي رَجّ المكان يعزف خوفاً في القلب..

أغصان وأطراف الأشجار المتكسّرة تُودّعك قبل أن تركب السيارة عائداً إلى البيت، كأنها تطرح عليك التحية العسكرية...

كان آسر سعيد بما جمعناه، والأكياس امتلأت، وصار يلوح للحاضرين بشارة النصر فرحاً بالكنز.. التفتَ ناحيتي وقال: ما هذه الخشبة المقرفة التي تحملها؟!

- يبدو أنها قدم خشبية لشخص مات أو أصيب أو اعتقله الجيش!

- الخشب ليس له ثمن يا صديقي، والمعادن فقط هي الثمن، فكل العالم يقاتل لأجل المعادن، وسأخبرك أن كلّ الحروب التي نَشَبَت في هذا العالم سببها المعادن، وأنا على يقين أنه ستندلع حروب في العالم بعدد معادن الجدول الدوري (118 عنصر) وبعدها تقوم القيامة.

- لكن أهم من تلك المعادن التي تتحدث عنها يوجد معدن هام هو الناس _ أقوى من كل المعادن.

- ****

ركنتُ القدمَ الخشبية في زاوية الورشة، واهتممت بما جلبت من الخردوات والنحاس وبقايا الألمنيوم، وصار زبائن الرصاص يتوافدون على بيتي، من بين الأشياء التي جلبتها زنبرك طويل حديدي مصقول قطّعته على مقاس مسدسات الحلواني المصري، لقد ساعدني ذلك في إصلاح عدد كبير من هذه المسدسات.. كل يوم يجلس صديقي آسر في ورشتي، ويتفقد أسلاكه ويوزعها في أكياس حسب نوعها، وكان يرقص كلما شاهد متراً من الكوابل الثقيلة لأنها تحتوي على مادة نحاس ممتازة تُباع بملغٍ كبيرٍ لمصانع الأسلاك الكهربية.. بعد ثلاثة أيام فرغت الحمولة وبيعت معظمها، وتصرف آسر أيضا بكل الأسلاك، جيوبي انتفخت بالشواكل وخاصة الأوراق فئة عشرين شيكل.. (تهتم دولة إسرائيل بوضع شخصيات يهودية على عملتها، وتضع كلمات وجُمل غير ظاهرة مكتوبة باللغة العبرية وهي جزء من التوراة أو بروتوكولات بني صهيون).

كنت أنا وآسر نرتادً مطاعم اللحمة والشواء، لنأكل ونشرب المشروبات الغازية نوع سفن آب، حين نشرب السفن آب كان آسر يقول لي: بأن مصنع المشروبات في قطاع غزة هو كان الوحيد الوكيل في الشرق الأوسط

لسفن آب، لكن إسرائيل ظلّت تُطارد صاحب المصنع حتى سَحبتْ الوكالة منه ...

في فترة غير مناسبة من تاريخ المخيم ازداد عدد المسلحين والاتجاهات والتفكير في نمط المقاومة والسلام، وأصبحت لغة السلاح تتحكم في قرارات وتفاصيل الحياة عندنا.

صار السلاح يتدخل في الزواج والطلاق والمشاكل العائلية، على مساحة البيوت، والشبابيك التي تفتح على الشوارع الفرعية، ومن كان لا يملك سلاحاً أو رصاصاً لا يستطيع أن يدافع عن حقه في العيش في المخيم.

نشطت المشاكل في بشكلٍ كبير بسبب قصص تافهة جداً منها المسافات بين البيوت، والاختلاف على مياه المجاري التي تخرج من ثقوب صغيرة من مطابخ البيوت إلى الشارع، وعلى شبكات خراطيم المياه من محول (شبر) المياه الكبير الأصلي الموجود عند طرف المخيم.

حبل الغسيل أمام البيت من أصعب المشاكل حين تخرج المرأة لتنشر الملابس وشباب المخيم يجلسون تقوم المشاكل على المعاكسات، ومن أكثر الخلافات التي يحدث بها إصابات هي بسبب (حمار أبو حمودة)

الذي كان أجرباً ويأكل كثيراً ويترك روثه في شوارع المخيم الفرعية، وكان الناس دائمي الصراخ على أبي حمودة بسبب حماره البذيء سيء السمعة.

وحين تصل المشاكل إلى التراجم بالحجارة والتضارب بالعصى والصراخ والشتم وذكر اسم الأم في المشكلة، يأتي رجل يحمل سلاحاً ويحل المشكلة حسب مزاجه، الجميع يوافق على الحلّ ومَن يُخالف يُعاقب، وأقل عقاب قد يناله لعدم قبول الحلّ، يُقال عنه: أنه يدخن الحشيش ويصبح حقيراً يفقد احترامه بين الناس.

أذكر جيداً أن جارنا فاروق جابر رفضَ حلّ السلاح لأنه لم يكن منصفاً بالنسبة له، شوّه فاروق حَمَلَة السلاح وأطلقوا عليه.. سارق الملابس الداخلية للنساء عن أحبال الغسيل، وأشاعوا أنه كان يمارس العادة السريّة عليها غرب المخيم حيث الخراب عند الكثبان الرملية (السوافي). ظلّ فاروق جابر يعاني من هذا الصيت النتن والسمعة السيئة والناس ترمقه بنظرات غريبة، حتى غادر المخيم مكرهاً لمنطقة بعيدة وسكنَ بالقرب من الحدود، وعاد بعد فترة من الزمن إلى المخيم ومعه رجال بزي غريب يحملون أسلحة، كأنه شكّل حزباً جديداً وصار يطلق هو ورجاله قذائف

الهاون على المستوطنات المحاذية للقطاع، وصار كل من يسكن المخيم يهاب فاروق ورجاله، لكن لم يطل الأمر، أصيب بمرض الفشل الكلوي الحاد، وحاول أن يقنع شاباً من المخيم بأن يعطيه كليته لكنه فشل في ذلك، وزاد مرضه ومات بالفشل الكلوي وخرجت له جنازة كبيرة لتشييعه، وشارك مئات المسلحين وأُطلقت عشرات الرصاصات في سماء المخيم.

الناس بدأت تتأقلم على هذا الوضع السائد بوجود حكم السلاح والملثمين في الشوارع، وكَثُرت الرايات، وظهرت الشخصيات والسيارات الأنيقة والغريبة في الشوارع...

وفي يوم كئيب فزع المخيم على صوت إطلاق نار وصراخ، لم يستطع أحد أن يخرج من بيته، وذاع الخبر بأن المسلحين يتقاتلون.

تحوّل المكان إلى ثكنات عسكرية، وكل مجموعة تحتل مكاناً من المخيم وتنشر رجالها في الأزقة، ومع تبادل النار ازداد الخوف والتربص والقلق بين شباب المخيم _ هناك حالات قتل وخطف! لقد أصبح الوضع لا يطاق، ووصلت المشاكل للعائلة الواحدة، بين الأقارب والأخوة، والعقل تَغيَّب في لحظات، حتى الآن لم نعرف لماذا يتقاتلون؟ لماذا يتصارعون؟

وطال أمد الصراع والفتنة بين المسلحين.. لا أخفيكم سراً أن مهنتي وعملي في بقايا السلاح والرصاص زاد الطلب عليها في وقت الفتنة، إلا أن جاء إلى بيتي أحد الرجال المسلحين بوجهٍ عابسٍ وهددني ألا أصلح السلاح لأحد معين لأنه يحمل راية غريبة عن أصولنا. ومنذ ذلك التهديد أخذتُ على نفسي ألا أعمل في هذه المهنة، حتى لا أُحسب على جهةٍ معينة، وحزمتُ أدواتي في حقيبة كبيرة، وأغلقتُ الورشة.

لكن بدأت نقودي تنفذ يوم وراء يوم، وعدت أتلقى مصروفي من أبي، وعادت قصص أبي وذكرياته في العمل داخل إسرائيل.

[يعلمونهم حمل السلاح، ولكن لا يعلمونهم طريق العدو].

****

أفتح الورشة وأجلس بها دون اشعال الضوء، كان عند أبي مذياعاً (راديو) يعمل بالكهرباء، وبدونها أيضاً، صناعة قديمة غريب الشكل، به بعض المحطات التي تذيع أخباراً عن موجات راديو إسرائيل، كنت أسمع الأغاني القديمة وبعض البرامج والتحليلات السياسية، لم أكن مستمتعاً في ذلك، إلا في فترة إذاعة أغاني أم كلثوم، وحين يسمع أبي صوت أم كلثوم يقترب من الراديو، وكل أغنية يقول لي اسمها ومن ألَّفها ومن لحَّنها ووقت غنائها أول مرة، والمسارح التي وقفت عليها، كان أبي يسرد كل تاريخ مصر عبر أغاني أم كلثوم بدأها بالملك فاروق وثورة الضباط الأحرار وسيرة جمال عبد الناصر، والنكسة وحرب الاستنزاف، وحرب أكتوبر، والسادات....

أبي لم يكن خبيراً في التاريخ لكن كل أهالي قطاع غزة عاشوا تفاصيل مصر، وكنا في المدارس ندرس المناهج والثقافة المصرية.

حتى في مواسمنا وأعيادنا نعيش تفاصيل تشابه حياة المصريين مثل الأجبان والملابس والغناء وحتى أكل الفسيخ (السمك المعتق المملح) المفروض علينا في عيد الفطر، حيث أخذناه من عاداتهم.

في كل مرة أدخل الورشة؛ أتعثر بالقدم الخشبية، قررتُ أن أبيعها لجارتنا أم فتحي المصابة بداء السكري والضغط، فقطعت رجلها من أثر حادث سيارة، وكان الحادث بسيطاً ولأنها مصابة بالسكري، ازداد جرحها وأصيبت بالغرغرينا، قرر الدكتور أن يقطع رجلها، وشفيت وركبّت قدماً خشبية وكل عام تُغيرها على حساب الجمعيات الخيرية، سوف أحملُ القدم وأعطيها إياها علها تستخدمها... لكني نسيت الأمر واهتممت بأخبار صديقي آسر الذي يأتي لي بنهفة جديدة كل يوم عن المشاكل أو الاجتياح عند الحدود أو حول المستوطنات. حين أنام في ساعات متأخرة من الليل بعد أن تهدأ ضوضاء الناس ويخفت صراخ المخيم وترقد ضحايا النميمة، كنت أحلم برَجلٍ يأتي ليّ ويهزني ويقول لي: أنا عروة بن الزبير، كان شكله غريباً، طويل القامة بلباسٍ أبيض، أقوم مفزوعاً من الحلم، وفي الصباح يتبخر الحلم.. تكرر الحلم في كل ليلة ويأتي عروة بن الزبير ويهزني، بصراحة أنا لا أعرف من عروة؟ وقررت أن أسأل عن هذا الرجل..

قابلت إمام مسجدنا الشيخ حسين، [كل ما أعرفه عن الشيخ هو اسمه، أنا فقط أتردد على المسجد في شهر رمضان وأقابله ويعطينا دروساً، عرفت عن الشيخ حسين أنه كان طالباً في كلية الطب بمصر

وانضم هناك إلى تنظيم إسلامي، وصار الأمن المصري يطارده، حتى ألقي القبض عليه مع مجموعة من الطلاب السودانيين والمصريين والفلسطينيين واعتقل لمدة ثلاثة أعوام في سجن العتبة المصري التابع للأمن المصري، ثم رُحِّل إلى قطاع غزة، ومُنع من العودة لمصر ولم يكمل دراسة الطب] كان الشيخ لطيفاً وغريب الأطوار، لكنه ذو ثقافة عالية ويفسر الأحلام، أوقفته في الشارع قبل أن يذهب لصلاة العصر، وسألته: يا شيخ! يأتي رجل لي في الحلم، ويخبرني أنه عروة بن الزبير...

ضحك الشيخ: هذا تابعي جليل [عروة بن الزبير بن العوام] رحمه الله، ورضي عن أبيه، وله قصة مشهورة مع قطع قدمه وهو يصلي...

حين سمعت جملة قدمه مقطوعة، قلت يا شيخ: وما هي قصته.. كانت هذه القصة في عهد الخليفة الأموي [الوليد بن عبد الملك] فقد طلب الخليفة من عروة أن يأتي لزيارته في دمشق مقر الخلافة الأموية، فتجهز عروة للسفر من المدينة النبوية إلى دمشق واستعان بالله وأخذ أحد أولاده معه [وقد كان أحب أبنائه السبعة إليه] وتوجه إلى الشام، فأصيب في الطريق بمرضٍ في رجله. وأخذ المرض يشتد ويشتد حتى أنه دخل دمشق محمولاً

لم يعد لديه قدرة على المشي!! انزعج الخلفية حينما رأى ضيفه يدخل عليه بهذه الصورة، فجمعَ له أمهر الأطباء لمعالجته، فاجتمع الأطباء وقرروا أن به [الآكلة] وهي تسمى في عصرنا هذا [الغرغرينا] وليس هناك من علاج إلا بتر رجله من الساق. لم يعجب الخليفة هذا العلاج، ولسان حاله يقول: [كيف يخرج ضيفي من بيت أهله بصحة وعافية ويأتي إليّ فأبتر رجله وأعيده إلى أهله أعرجاً] ولكن الأطباء أكدوا أنه لا علاج له إلا هذا، وإلا سَرَتْ إلى ركبته حتى تقتله. فلم يجد الخليفةُ بداً من إخبار عروةَ بقرار الأطباء، فقال عروة: [اللهم لك الحمد] ولم يزد عليها كلمة واحدة. واجتمع الأطباء حول عروة، وقالوا: اشرب المرقد أو الخمر [وهو شراب مخدر أو ذاهب للعقل حتى لا يشعر بألم قطع ساقه وبترها] فرفض تماماً وأبى مستنكراً ذلك، وقال: كيف أشربها وقد حرّمها الله في كتابه! فطلب من الأطباء أن يقطعوا قدمه وهو يصلي وخاصة وهو ساجد...

- لكن يا غسان أن تحلم بالقدم المقطوعة فهو خير لك سوف يتغير حالك للأفضل!

- وكيف يتغير حالي للأفضل يا شيخ؟

- يمكن بدلاً أن تصلح الطلقات الصغيرة؛ تصلح الدبابات!

ابتسم الشيخ حسين ومضى للصلاة.

سرد الشيخ القصة كأنه يقرأها من كتاب، لكن لم أتذكر سوى القدم المقطوعة ورَبطُتها، بالقدم الخشبية الموجودة في الورشة...

ركضتُ بسرعة لأتخلص منها... حملتها وهممت أن أتبرع بها، وإن لم تعجب جارتنا أم فتحي سوف أحرقها... كانت ثقيلة نوعاً ما وحين حاولت الخروج من الباب تعثرت في الإطار الداخلي للباب الخشبي فسقطَتْ من يدي، وكان جوفها مليئاً بالأوراق القديمة التي يطغى عليها اللون الأصفر المُعتّق.. جمعت الأوراق في رزمة وعدتُ إلى الورشة، ووضعتها أمامي على الطاولة بالقرب من عِدة العمل...

صرتُ أقلب الأوراق بسرعة، بعضها قديم جداً، وبعضها يحتوي كلمات باللغة العبرية وأخرى بلغات لم أعرفها، مختومة بنجمة داود وأخرى عليها ختم لثعلب بذيل طويل كثيف الشعر... تمنيت أن تخبرني كل صفحة أو مخطوطة عن تلك الخطوط التي توالت عليّ، في بداية الأمر تُقنِع نفسك أنها ذات قيمة، وفي النهاية تُخبر نفسك أنها ورقة مملوءة بكلمات فقط،

وقد لا يكون لها أية قيمة أو معنى.. وبمرور الوقت والبحلقة والتخيُّل في الأوراق ستصبح أنت الأوراق وكأن أحد يُقلِّبك. يبدو أنها كبقية الأوراق في حياتنا، تلك الأوراق التي نحرص على الاحتفاظ بها وتجعلها معك طوال حياتك كورقة شهادة ميلادك، وورقة عقد الزواج أو بطاقة التموين، أو البطاقة الشخصية، قد تكون شهادة الوفاة لأحد رحل عنك وتكون مؤلمة حين تقلّبها. القاسم المشترك بين كل تلك الأوراق ونحن البشر الذين نركض على كوكب الأرض هو الرقم، إنّ لكل منها فائدة واستخدام واحد فقط...

ومن هنا بدأت رحلتي واهتمامي بالأوراق وتركت مهنتي الأولى وقررت في نفسي أن أفسر مضمون هذه الأوراق وقد تحملُ سراً عن شخص ما عاش في قطاع غزة، شخص غريب، لا ينتمي للمكان، ولا للسماء، ولد في مكان بعيد، ولد من شفرات الغبار، فحملته الريح إلى غزة بنكهة جديدة وبلغة جديدة وبإحساس غير مألوف لنا...

****

- آسر لو عندي أوراق مهمة من شهادة ميلاد وبطاقة شخصية ومهام وأوامر عسكرية، ورموز ولغة غير العربية، ورسمات لبعض الشجر... وأريد أن أُحوّل كل هذه الأشياء لقصة مكتوبة أبلّغ العالم عن صاحبها...

- هل تريد يا غسان أن تصبح كاتباً، وتترك عملنا في الخردوات؟!

- الأمر ليس كذلك، لكن منذ أن حملتُ القدم الخشبية من مكان القصف ووجدت الأوراق داخلها، كأنه نزلَت عليّ لعنة صار جسدي خفيفاً، صارت الكلمات تدور حولي، أشتاق لرائحة الكتب القديمة، صرت أعشق لون الحبر الأزرق وكل ملابسي صارت زرقاء، كل يوم أَمُرّ من أمام المكتبة العامة في مركز المدينة، أتخيل أن كل كاتب قرأنا عنه ونحن صغار يمشي معي، حين أشرب القهوة أتخيل أني أقول شعراً لمحمود درويش، أرى غسان كنفاني يركض خلفي، لا أعلم ما يحدث معي؟ لابد أن أجلس مع كاتب وأتحدث إليه عن الأوراق وقد نكتب قصة عنها، أو يُعلّمني

كيف أكتب القصة، أرجوك يا آسر ساعدني بالالتقاء بكاتب في المخيم...

- يبدو الأمر خطيراً، تذكّرني بخالي الذي مرض بالسرطان ورفض كل ما حوله واهتم كيف يموت؟ أنا أتذكره الآن لأن ملامحك تشبه ملامحه حين كان يدخن ويشرب الماء المرتل عليه آيات من القرآن..

- معقول يا آسر الكتابةُ موت، أو ما قبل الموت...؟

- لا أعرف يا غسان، لكن تكتب أو لا تكتب لازم نعمل، لأني أسمع بأن الكتابة لا تُطعم خبزاً...

- المهم مَنْ تعرف من الكُتّاب حولنا يساعدني على الكتابة؟ أنا مريض وأريد أن أشفى مما أنا فيه!

- أتذكر مرة كنت ألعب كرة القدم في ساحة فارغة خلف المخيم، وتعودنا أن نلعب هناك، ومرة جئنا للمكان، فوجدنا أناس يرتدون ثياباً جميلة، وكان أحدهم يحكي شعراً، وآخر يسرد قصة، وحين

سألت: ماذا يفعلون في ساحة اللعب؟ قالوا: أنها أمسية ثقافية، وهؤلاء كُتّاب في الشعر والقصة، وهذا أول لقاء وآخر لقاء، لكن يا غسان سمعتُ من أختي الصغيرة عن كاتب يبيع القهوة على الرصيف، اذهب عنده وقد تجد حلاً لمشكلتك. اسمه (نسيم الكرتاوي)

- إلى الرصيف يا آسر... قد أجد حلاً لمشكلتي... منذ أن وجدت القدم الخشبية وأنا أفقد المتعة ،أشعر بالملل ولا يوجد لدى ما يجعلني أن أعود لإنجاز وإصلاح طلقات الرصاص، تنقصني المتعة وفمي به مرارة ... لا أريد الاختلاط بالناس، أشعر بكسلٍ شديد وعدم رغبة في الكلام ... كنت حين أنجز شيئاً صعباً أبتسم، أما الآن فلا أبتسم ولا أشجع نفسي على التكرار ... أفتقد الشعور بالمتعة عند أكل فلافل حسني الأخرس، [أنت تعلم يا آسر أن حسني الأخرس يبيع الفلافل اللذيذة والشهية وكانت أجمل لحظاتي أن يكون عشائي منه، البارحة حاولت أن أعود لمتعة فلافل حسني لكني لم أقدر...] حتى متعتي بالجلوس لساعات تحت اشجار الكينيا المزروع في مدارس المخيم فقدتها، ومتعتي أن أقف على

باب المدرسة لكي أشتري من الأطفال العصافير (الخُضر وطز الليك والحموري) بنصف شيكل ومن ثم أُطيّرها لا تجدي معي الآن، قصص أبي صارت مكررة تشبه كابونة وكالة الغوث كل شهر، وصوت أمي الذي أحبه وهي تتحدث عن لذة طبيخها وأن لا واحدة من نساء المخيم تطبخ مثلها مللتها، أكاد أختنق مما أنا فيه ... الحياة ليس لها طعم بالنسبة لي، عبارات يرددها الكثيرون في خضم الأحداث اليومية التي نمر بها لا تغريني، كنت دائما أضع الراديو قرب رأسي وأسمع كلّ الأخبار وأقلّب كل الموجات... والتي أصبح معظمها في الغالب لا يتلائم مع الشحنة الغريبة التي تلقيتها بسبب القدم الخشبية، الملل يتسرب إلي حياتي دون أن يشعر أحد.

- أنت مريض جداً يا صديقي غسان، وإن لم تعد لحياتك وعملك سنجوع، لا أبيك ولا أبي يقدر أن يصرف علينا، أنت تعلم يا غسان أن أبي كان سباكاً ماهراً وكان يعمل في شركة إسرائيلية وكان خبيراً في تركيب الحمامات الشمسية الحديثة، لكن منذ أن وقع على ظهره وهو يركب خزاناً على سطح أحد البيوت، انكسر

عموده الفقري وتوقف عن العمل وحالتنا في البيت تزداد سوءً، لكنه في فترة جلوسه في البيت نشط في إنجاب الأولاد والبنات، بالكاد نستطيع أن نأكل وجبة واحدة طوال اليوم، يا غسان سنشارك قطط المزابل في الطعام، الزمن لا يرحم، اليوم لنا فرصة أن نعمل في الخردوات والأسلاك وبقايا الرصاص وزنبركات المسدسات المصرية، لا تعلم ما تخبئ لنا الأيام! [أبي دائما يقول لنا: إذا توفر أكلك ابلعه كله، يأتي يوم ما تقدر تشمه].

- ما دخل ما أقول بالطعام والأكل وأبيك؟

- أبي نبي من أنبياء الأرض، ما يقول يحدث! عنده حدس وتفسير خاص..

- يا آسر.. أسئلة كثيرة قد تأخذني من اللحظة وتلح عليّ بالإجابة، وعندما ينتابني هذا الشعور القاتل والذي أعتبره القاتل الصامت، أحيانا أتساءل إلى متى سيستمر معي هذا الشعور؟ وماهيته؟ هل هو ضيق من كل شيء يحيط بنا؟ هل هو ملل من الحياة أم هي حالة خمول؟ كأني الغزال الذي يُصطاد بسهولة في البرد...

- وما هو صيد غزال البرد...؟

- صياد الغزلان الشاطر ينتظر حين تكون الليلة باردة جداً، يخرج في الصباح الباكر فيجد الغزال لا يقدر على المشي ولا الركض جراء البرد القارص، فيصطاده بسهولة...

– هل هذه الحالة عادية أم مرضية؟ هل لها فترة محددة ثم ستزول وحدها مِن رأسك يا غسان أم عليَ أن أقوم بشيء اتجاهك؟ وإن كنتُ أريد أن أُخلّصك من هذا الشعور، فماذا عليَ أن افعل؟

– أنا أعرف علاجي ... لابد أن أُقابل الكاتب الذي ذكرَته أختك (نسيم الكرتاوي) ...

****

لا أعلم كنت قلقاً جداً وكاد وجهي يتشقق كطين جاف حُرِم المطر منذ زمن، قبل أن أذهب لمقابلة ذلك الكاتب الذي يجلس على الرصيف، هذا القلق أكبر من قلقي لقاء طبيب الأسنان في عيادة وكالة غوث اللاجئين، والذي لا يجيد فقط إلا خلع الأسنان بعد أن يضع لك مخدراً (بنجاً) خفيفاً، تبقى ثلاثة أيام وأنت منتفخُ الفم، وشفاهك متدلية تشبه شفاه جَمل الصحراء، ومن سوء حظك الذي لا يغتفر أن يكون خلع الضرس يوم الخميس، الألم سيحرمك من طعام غذاء الجمعة بعد صلاة الظهر.. (أغلب المصلين لا يصلون ركعتي السنة ليركضوا إلى الغذاء... أيضا خطيب الجمعة كان يختصر الخطبة، ويركض معنا...) هذا الغذاء يكون غالباً من الدسم، لحمة وخاصة الدجاج الأبيض.. أهل المخيم عندهم نخوة، كانت أغلب الأفراح والولائم تكون في يوم الجمعة حيث يقدموا اللحم للمعازيم، يوم الجمعة مقدس عندنا في قطاع غزة من حيث الصلاة والطعام... أذكر.. بعد الحرب الأولى على العراق، مُنع العمال من دخول الأراضي المحتلة، وضاق العيش على كل ساكني قطاع غزة، بعدها فقد أبي عمله وصرف ماله كله، مثل أغلب العمال، آخر عمل له عمل هناك خياطاً في مصانع المدينة الصناعية عند الحدود بعد نقطة التفتيش بيت

حانون [إيرز].. وكان العقاب لكل العمال بوقفهم عن العمل، لأننا نقف ونشجع العراق في قصفه لإسرائيل، كنا نتوقع أنه المُخلّص لنا...

بصراحة كانت أمي تخلق لنا الطعام من الهواء، في الأيام العادية من البامية المخزنة، ورق الدوالي، البندورة المجففة، العدس الأصفر، علبة سردين، والجبن الأبيض، والخضيض (الحليب) المالح.. التي كانت تصنعه من أكياس الحليب الجاف التي نستلمها من وكالة الغوث... لكن لابد أن يكون يوم الجمعة به دسم، فكانت تذهب في الصباح وتطلب من بائع الدجاج أن يعطيها أرجل ورؤوس الدجاج، وتصنع لنا شوربة عليها، يوم الجمعة يذكرني بذكريات كثيرة منها حين دخل خالي الصغير رفيق بيتنا بدون استئذان حيث كان يركض خلفه الجنود، كان خالي خفيف قفز عن حائطنا إلى بيت الجيران، في اللحظة امتلأت ساحة بيتنا بجنود الزي الأخضر الغامق والقبعات الحمراء (شمار قفول) وعلى سفرتنا أرجل ورؤوس الدجاج المطبوخة مع خبز محمص، استغرب الضابط المسؤول عن دورية الجنود مما رأى من طعام، وسأل أبي باللغة العبرية: ما هذا الطعام؟ أبي كان يجيدها (اللغة العبرية) كأنه ولد في شارع (بن يهودا) فرد عليه: أننا نأكل هذا الطعام لأنه لا يوجد عمل... انسحب الجنود خجلاً

وتركوا خالي ولم يركضوا خلفه... بعد أن خرج الجنود من البيت، رجع خالي وشاركنا الطعام وكان يأكل بالأرجل بشراهة وحب، وقتها التفتَ إلى أمي وقال: هل تعلمي يا أختي أننا منذ البارحة لم نأكل أنا وأصدقاء الحجارة..) السؤال يتردد في رأسي، يجعلني أثمل كيف أكون مناسباً للقاء نسيم الكرتاوي؟ ما هي الملابس المناسبة للقائه؟ هل يحب ربطات العنق العريضة؟ عندي إحساس أنه يحب الساعات الفاخرة! لأنه يقدس الوقت ويهتم أن تكون مواعيده مضبوطة... القمصان مفتوحة الأزرار، عندي شعور أن يكون البنطال أسود، وماذا أفعل لأكون مثل الفكرة التي تلهمه للكتابة حين يراني ولا يفلتني، سأمسك بيدي كتابا، أي كتاب لو سألني عنه أقول له وجدته في الطريق، هذا سيكون مدخلاً عميقاً، قد نتبادل الأفكار والحوار وأحكي له سرّي عن القدم الخشبية والأوراق، وأني أريد أن كتابتها...

****

- لماذا تكتب يا سيد نسيم؟

- نكتب لنضيف فصلاً خامسا للعام، لنفسر وشوشة الأصداف، لنمنحك أنت المغامرة، أن تمشي مع جوليت في شوارع المخيم، وإذا سألتك عن قنوات المجاري بين البيوت، كن واثقاً في الرد: وقل هذا جزء من عالم التجريد الذي نعيشه، نكتب لاستعادة الزمن الضائع الزمن الذي ولدت به المعارك، وإن لم تكن جندياً محارباً يشرب كأس الانتصار، فقط عليك الشعور بذلك، من المعروف أن شقاء من يكتب كما يقول الوجوديون هو أن الكتابة كائن زماني، أي أنه لا يمكن أن يعيش إلا داخل الزمان، فهو دوماً يستقبل أزمنة و يودع أزمنة، الأزمنة التي مارست بها ارتدائك للون الأزرق لأكثر من اثني عشر عاماً وأنت تذهب للمدرسة لمجرد الحصول على ورقة مدون بها اسمك ودرجتك النهائية، نحن نخلق وننضج الشخصيات نضع لها عمراً كما يحلو لنا ولا يتجاوز عدد صفحات القصة، لتستذكر ما فات وما مضى، إنها تأتي كمحاولة للقبض على هذا الذي يمضي، وخصوصا بعض اللحظات والأمكنة التي تركت بصماتها على الذات... إنها تأتي

للقبض على الزمن المنفلت أبدا الذي لم يبق منه سوى بقايا صور في الذاكرة أو المخيلة أو الأحاسيس.... نحن نكتب لنَشفى من جراحنا، شعورنا بالنقص عندما تمر الفتاة التي تُعجب بها ويكون حذاؤك ممزقاً وهي نافرة الصدر وبوجه أبيض وأنت تشبه سندباد البحري عفن الرائحة، رث الثياب، نحن نكتب لأنّ حاجةً مُلحّةً في أعماقنا تدفعنا إلى ذلك، تدفعنا إلى التّجريب، لتجرب القتل والسرقة في وضح النهار، أو تمسح خطيئة صغيرة وهي سرقة الكرات الجلدية الملونة من غرفة ناظر المدرسة صاحب النظارات الخميلة، الكتابة تدفعنا إلى لذّة الخلق، تفسر الخلق لماذا يحب سنجاب الحقل البندق؟ لماذا لا تبلل الغيمة الصغيرة إلا الفقراء؟ الكتابة نوع ما من معرفة قدرتنا في إنجاز خلقٍ على نحوٍ يُثير الدّهشة، على تخيل الرصيف الذي نجلس عليه أنه مكان مشى عليه آدم وهو يبحث عن حواء، عن كل القلق الذي يعيشه الكون لا يهمك، فقط عليك أن تحك أرنبة أنفك، ستزول كل الحروب عن كتفك... صار السيد نسيم يسترسل في الحديث والوصف، كنت أشعر بمفعولِ المسكّن القوي حين تأخذه لوجع الرأس، كأن

المسكن يحتل رأسك والوجع يختفي شيئا فشيئا. أشعر بأنه بدأ ينبت على كتفي جناحان من ريش ستساعداني لأطير، كان كلامه لذيذاً وممتعاً كأنك تأكل تفاحة، كل ما يهمك طعمها وشكلها، لا يعنيك ما هي المادة المكونة لها أو أين ومتى زرعت؟ أو من قطفها؟ رغم كل هذه الراحة إلا أني لم أفهم كلامه كثيرا، كلام يشبه الموشحات التي يغنيها المسحراتي في الليل، تطرب لها وتساعدك على أكل كميات كبيرة من مقلي البطاطا لصوم طويل، قبل أن يصدح المؤذن بالكف عن الطعام. حركاته وهو يتحدث، وهو يُقلّب سيجارته ويرتشف فنجان قهوته يشبه دهشتنا في الطفولة الأولى، تعيدنا إلى الوراء لصوت بابور الكاز النحاسي التي كانت تشعله أمي وسط البيت لتطهو عليه الخبيزة الخضراء بانتظار عودة أبي من العمل بثيابه الملطخة بالدهان والأسمنت، تدفعنا إلى أنْ نفجر شهوتنا في امتلاك كوكب المشتري لنهديه لجدتي المهاجرة من قريتها القديمة إلى المخيم.

- يا سيد نسيم متي أبدأ بالكتابة؟ هل حين أجوع، حين أنعس، حين أرافق أمي للسوق، مع صوت المطر على سطح بيتنا، في

الصباح، مع رائحة صابون جارتنا وهي تستحم، أَم بعد وجع وألم عصى مدرس الرياضيات...؟

- حين تشعر بأن الشخص الذي تود الكتابة عنه يرافقك في كل مكان، تشرّي له العصير والمكسرات، حين يجبرك أن تتحسس جدران البيوت، حين تتقن الشك، وتفسر كل شيء بغير المعتاد.

[استرسل السيد نسيم في الكلام مرة أخرى، وصرتُ أنا أكثر التصاقا به، كأني كنت في موسم الخطيئة وهو الذي يمنحني طرق الخلاص منها، جدّدَ طلبه للقهوة على الرصيف، وأشعل سيجارة أخرى، وكل ما حولنا موسيقى تصويرية تساعد السيد نسيم للقول أكثر، كلما ذكر وصفاً جاء ما يشابهه على الرصيف، حين يذكر الإزعاج في كلامه بوق السيارات يضج بالمكان، وحين يذكر الحب تمر سيدة من زمن الأسود والأبيض، وكلما ذكر الليل زاد صوت إزعاج صراصير الليل].

تعرف منه في زمن قصير أن الكتابة اعتقاد لا يعتمد على السحر وغيره من الأشياء الخارقة للطبيعة، يكفي أن تطلق العنان كليًا للكلمات

أن تبني عشا في جوفك، حتى إذا كنت ستصنع عالمك الخيالي من الصفر، تظل مطالبًا بأن تكتب قصتك بأسلوب مُقنع وأصيل ومتميز ومن رائحة المخيم وتضع عليها عطراً يشبه رائحة دواء الغسيل التي تستخدمه النساء في يوم الخميس.

يجب أن تبذل مجهودًا كبيرًا وتراعي أدق التفاصيل بحيث تقدر بكلماتك على لفت انتباه القُراء ودفعهم للاستغراق كليًا في النص والشعور بأنهم أمام حقيقة، مثل زواج الأميرات من الملوك، حقيقة مثل أن العصفور لابد أن يُوضع في قفصٍ حتى لو كان رخيص الثمن وأن القفصَ يضاعف ثمنه عشرات المرات، مهم أن تكون إجابتهم بأحداث غير مألوفة أو أخذهم لكواكب فضائية أو وضعهم أمام عالم مكتمل قريب للفراغ، قل لهم أن الكتابة تشبه حياة المتزوجين ليس بها من المتعة ولا تشبه الخيال وامتطاء الغيوم ومرافق حسناوات المجلات الملونة الموجودة عند أشباه اليساريين في العادة السرية.

اصنع عالمك القوي مثل أسطح المخيمات المعرشة من الصفيح وتحمل عشرات الحجارة المربعة الثقيلة وصناديق فارغة وأحذية قديمة، وإطارات (عجلات سوداء) سيارة قديمة، وقفص حديدي تربي به صغار الحمام.

ضع بعض القواعد المنطقية المنظمة التي تشبه مشية البنات العسكرية في المخيم وأهمها بنت ناظر المدرسة الوحيدة الموجودة في المخيم صاحبة الأنف الطويل التي حين تمشي لا يبقى أحد إلا ويحلم أن يتزوجها، لأنه حين يموت أبوها؛ قد يترك خلفه إرثا كبيراً من المال بعد تقاعده من التدريس بوكالة الغوث للاجئين.

[الشخص الوحيد الذي يملك ثروة كبيرة في المخيم هو من يتقاعد من وكالة الغوث للاجئين، يأخذ معاشاً كبيراً، يشتري أرضاً فسيحة على البحر في منطقة (المواصي) ويزرعها بكل الأشجار، لا يُعمر بعدها كثيراً لأنه سيصاب بجلطة من التفكير بمقدار المال الذي معه، ويصير يشك بمن حوله من أقارب وجيران أنهم سينهبونه].

طرقت آخر كلماته في رأسي كصوت مطرقة الحداد الذي صنع شبابيك وأبواب المخيم كلها نفس الشكل والوزن ومطلية باللون الأخضر، إن

الأحداث غير الطبيعية التي تذكرها من حركات وأصوات تدل على أفق واسع، فكر ملياً في تفاصيل ملامح الوجوه حتى لو كانت ثقوب الجوارب، انسج من كل الخيوط المداخل والمخارج خريطة لمخيم كأنه قارة جديدة وأنت مكتشفها.. لن تنجح في منح قصتك شعورًا عميقًا بالصدق والواقعية إذا لم يكن لديك رؤية واضحة عن أدق تفاصيل العالم الذي تدور به الأحداث، يجب أن تكون قادرًا على حكي كل شيء ممكن عن هذا العالم، صِفْ ذلك الكوكب أو المدينة الخيالية بشكل دقيق ومُفصل وكأنها مدينتك التي عشت بها طوال حياتك. يمكنك أن تتمرن على التأمل والوصف محاولًا وصف مشهد تقارن به ارتفاع حائط بيتك عن ارتفاع سور مركز توزيع الأغذية، كن حقيقياً لمرة واحدة وعدد لا منتهي خارج سياق الخيال. اخرج للتمشية في شوارع مدينتك واعمل على وصف كل شيء يقع أمام عينيك بلغة وصفية واضحة قدر الإمكان، استخدم كل حواسك واسأل نفسك: ما هو شكل المكان قبل أن يكون؟ ما أول رائحة شواء انتشرت؟ قاوم الشعور الذي يداهمك بداخلك واعتبره احتلال تريد خروجه منك؟

الآن حان الوقت من أجل استخدام حواسك في وصف العالم الخيالي، ما هي نوعية النباتات الموجودة حولك؟ ماذا عن الحيوانات؟ ما هي الألوان

الطاغية؟ الروائح؟ كيف هو حال الطقس هناك؟ ما هي الأصوات التي تتردد؟ اكتب وصفًا حرًا وطويلًا لأدق التفاصيل الممكنة المتعلقة بعالمك الخيالي.

****

تركتُ السيد نسيم الكرتاوي على الرصيف، ولم أنظر إلى الخلف، لكن كان عندي فضول لو لفتة واحدة أفسر بها ملامحه بعد لقائي.

هل أنا بنظره مجنون أو فكرة لعمل جديد؟ هل أنا فاشل؟ هل ابتسمَ بعد انصرافي؟ كم سيجارة سيدخن حين يتذكرني؟ لكن برأيي أني أشبه الكثير ممن يمرون عليه، أنا أشبه أحد معجبيه الذين يمرون عليه لالتقاط الصور أو بعض الكُتّاب الهواة الذين يحضرون ويلقون عليه بعض ما كتبوا من رسائل أو نصوص... قادتني قدمي إلى باب بيت صديقي آسر، وبصوت غير مسموع قلت: آسر، ثم وضعت يدي على فمي، كأني ندمت على القدوم إلى هنا، لا مكان له الآن في حياتي!

بدأ صوت داخلي كأني شخص ثاني يحاورني، آسر سيعيدك إلى مربع تجربتك الأولى (العمل لأجل الخبز) الرصاص، بقايا القنابل، رجال السلاح، المطاردين، تعديل صور الشهداء، أسلاك صديقي التي لا تنتهي وشهوة النحاس الأصفر، والبارود البارد، وصوت المقدح، وجع يدي من العمل بالمفك لإخراج مسمار صدأ، تركيزك عند وضع الصاعق في القنبلة، كرهك لحبات العرق الذي تهطل من وجهي حين أجرب مفتاح

القنبلة التي أعدت تركيبها... أما الصوت الآخر يقول: جرّب الكتابة، جرب هذا العالم، عدة أيام تجلس مع نفسك، تفرك رأسك كثيرا، تتأمل الأشياء، الأصوات، الألوان، تعيد الأشياء لفطرتها... في لحظة فتح باب بيت آسر، وقبل أن يدرك أني واقف انتظره، ركضت باتجاه بيتي، كنت أركض كحصان عنترة بن شداد، كغزالة تهرب من أسد، أركض كفرحة فراشة إلى ضوء تراه من بعيد، زادت سرعتي كسرعة تمساح حيّ يمسك حماراً وحشياً بأسنانه في نهر الراين الفرنسي.. مع هذه السرعة ورشاقة القلب في الركض والفرحة، لأني ذاهب لأكتب، اصطدمت بأحدهم سقطت على الأرض كاد يغمى علّي، من هذا الرجل الصلب رغم أنه عادي جداً؟ يا الله كم صرت أتعرق بشدة منه.

شخصت نظري اتجاهه، إنه نسيم الكرتاوي، مد يده ناحيتي ليسحبني من الأرض، هذا المشهد يذكرني بلوحة كبيرة مرسوم عليها يد كبيرة بأصابع طويلة ممدودة من السماء باتجاه يدٍ صغيرة تخرج من الأرض، هذه اللوحة عرفت أنها يد الله من السماء ممدودة لآدم عليه السلام... أَمسكَ بيدي فنهضتُ، ابتسمَ السيد نسيم في وجهي وقال: إن الله منح لأنبيائه القوة عبر الكتب السماوية بالكلمات والحروف والآيات والحكمة، ولم يعطهم

الرصاص ولا القنابل ولا السيوف.. الكتابة صناعة السماء، وحين تكتب تصير نبيّ المخيم... قبل أن يغادر تكلّم بصوت يتخلله عظمة شيخ الجامع المحبوب، بملامح تشبه ملامح جمال عبد الناصر ذات الطابع الوطني، كأنه مخلوق تعلم على يد رجال من مثقفي الحزب الشيوعي قال بصوت به حشرجة: إن الله أنزل من السماء ثلاثة أشياء، الكتب السماوية، والمطر والرزق.. الكتب أنزلها وخصها بالأنبياء، أما المطر فيصيب به من يشاء، والرزق لكل مخلوقاته، وأنت حين تكتب تصبح نبياُ وتحمل رسالة، أما المطر والرزق هما أبطال وأحداث القصة...

****

من فرحتي أو شقائي بعد اصطدامي بالسيد نسيم الكرتاوي، وحين رتّل عليّ كلمة اكتب، اكتب! صرت أركض مرة وأمشي مرة، من الصعب أن تركض بسرعة في المخيم.

رجال ونساء المخيم مشهورون بصياغة القصص ورسم الإشاعات، لو فجأة أردت أن تمشي بسرعة لمدة عدة خطوات، وفي كل خطوة سيصيغون عنك قصص، أولها أنك سارق بيض دجاجات الحاجة أم رامي، وآخرها أنك حاولت أن تغازل فاتن بنت مدرس الرياضات في المخيم، فاتن كانت قمة في الجمال، كأنها سقطت من غيمة بخرتها من أوروبا وأمطرتها في المخيم...

وإذا أنكرت أنك عادي ولم تفعل سوى خطوات سريعة، سيقول الجميع عند أنك مركوب جني، وأمك سوف تجرك للشيخ عادل خبير أمراض الجن، سوف تشتري أمك الصابون والعطور أجرة الشيخ، ويحملك أخوتك عنوة إليه، وقتها سوف يمددك الشيخ على فرشة بنية اللون قديمة، وحولك عشرات الكتب الدينية، والكتيبات الصغيرة حول الجن وعوالمه، ومئات

الأشرطة (الكاسيت) مسجل عليها آيات من القرآن وصوت صراخ لزوجته، يستخدمه كموسيقى تصويرية لزيادة الخوف عند الزبون.

يضع يده على رأسك ويرتّل عليك مئات الآيات، يقول بصوت به درامى (اخرج) (اخرج)... من الظريف في قصص الشيخ عادل، لديه زوجة علمها أيضا كيف تخرج الجن للنساء، وكانت تطلب منهن الصابون والعطور ودجاج بريش أسود بلدي وزيت الكافور...

صرت أمشي كمعتاد باتزان لا وقت للخرافات لكن داخلي قطار سريع، وصلت البيت وقبضت على رزمة الورق التي كانت مخزنة في القدم الخشبية، ووضعتها أمامي على الطاولة وصرت أدقق بها وأتفحصها.

****

يوجد ثلاث صور: صورة شخصية قديمة بالية مكتوب عليها جمل باللغة العبرية، وصورة أيضاً لرجل يرتدي ملابس تشعر أنها فلسطينية، وصورة ثالثة تجمع شخصيات يظهر منها سيدتان؛ الصورة حديثة ملونة، يقف رجلٌ في المنتصف، والباقي يمدون أيديهم بشكل مثلث ويصنعون بالصورة شكل نجمة سداسية، أيضاً بقايا شهادة ميلاد _ ورقة مرسوم عليها حوالي اثني عشر قبراً (هذا ما فسرته).

على طرف الورقة مكتوب "غزة _حارة اليهود"، أيضاً ورقة صغيرة الحجم مختومة بخاتم (سبلات قمح) وفي المنتصف شكل نجمة، وورقة وحيدة مختومة بشكل ثعلب بذيل طويل...

بدأت أكتب عن هذا الأعرج (صاحب القدم الخشبية) بعد تزاحم الأفكار في رأسي، وجسدي كأنه مصاب بمس شيطاني، وخوفاً أن تزيد حالتي سوءً. كتبت هذه الجُمل!!! ولُد في ريف ناجو في تولوز جنوب فرنسا، وكبر وصار يتردد مع أبيه وأمه إلى المعبد اليهودي بعد أن سُمح لليهود في فرنسا ممارسة الطقوس الدينية والاقتصادية، حيث كان أبوه

دانييل ونسي، يملك حماراً أسوداً ينقل عليه الخضروات والخبز، من السوق إلى شوارع ريف تولوز.

كان وقتها قرار من الحاخامات بتشكيل عناصر دفاعية، كانوا يتدربون على القتال والسلاح الخفيف، وكان رجال المعبد يشرفون على ذلك... وكان حلمه أن يكون أحد الجنود الذين يدافعون عن اليهودية في ذلك الوقت ...

[فلسفة الإرث] حين تصاب بالحمى، الحمى التي تتكلم عنك، تستعير لسانك، وكأن آخراً داخلك مثل الأنبياء أو الحكماء أو المجانيين يوقظ مواطن القوة ويحولها لجنود جاهزين لمعركة، تصيب الهدف النقي للخلود، وترتل آيات لم تسمعها من قبل، وتؤلف قاموساً لما خلف السراب، بالحمى يُمكنُك أن تصارع دب الباندا في حقول الخيزران، أنت تريد عود الخيزران لتبني جسراً، وهو يريده للعَشاء...

بعد ثلاثة أيام ما بين اليقظة والتخيل والهبوط والطيران، وشخير في الصدر، ووخز في أسفل الظهر، وجلدك يصبح لزجاً من العرق كجلد ضفدع أخضر ملقى على ورقة عائمة في بركة مياه في ريف على الحدود

بين فرنسا وألمانيا.. بدأت الحمى تنسحب من جسده ولكن رست في أذنيه وجفونه، والنعاس يرافقه كظلّه، حمل جسده متجهاً إلى مقعد خشبي في طرف المساحة الخلفية للبيت، هو مجرد بيت عبارة عن جدران من طوب طيني وشبابيك تتراقص مع الريح الخفيف.

وقتها طلت أمه آفي موشي من الشباك الخلفي للبيت تصرح: عزرا، عزرا، رجل المعبد يريدك أنت وأبوك قبل الصلاة..

عزرا وقتها كان يجلس بالقرب من كومة القش الأصفر بين ماعز أسود، وثلاث دجاجات، يقلب ورقات مخطوطة جلبها أبوه من المعبد (الأعشاب اليهودية) لدكتور المعبد كوهين نفشي، فقط ليعيد تركيز "اللأشياء" داخله لكن لم يقرأ سطراً واحداً..

تحدث عزرا: ماما ماذا قُلتِ كرري ماذا قلت؟

قلت: رجل المعبد يريدك أنت وأبوك قبل الصلاة.. باقي ساعتان للصلاة ... وأبوك على وصول..

حارب نعاس الحمى، ورتب ملابسه وشعره، وفرك عيونه بالماء عشرات المرات حتى ظهرت زرقتها.

اتكأ على أبيه وهما يتجهان إلى المعبد، وكل خطوة يخطوها كان أبوه يُدّرسهُ كل التفاصيل عن المعبد، طبعا عزرا يحفظها عن غيب بدون خطأ... قال له أيضا يا عزرا: الكنيس (المعبد) أقيم على أرض منحها أحد أصدقائنا وجمعنا كل ما نملك من ذهب وفضة ونقود وأقمنا مبنى عادياً به غرفة بسيطة، مؤمناً من أي هجوم من جنود هتلر محصناً ضد الغارات. الأهم في هذا المكان الرئيسي في الكنيس هو خزانة الأسفار، التي قد تكون بشكل دولاب خشبي بسيط، أو خزانة منقوشة بزخرفات فنية.

وتكون خزانة الأسفار عادةً في مكان مرتفع، يوصل إليها سُلّم (درج)، كما تكون مزخرفة بأشكال للوصايا العشر. أهم الأدوات الطقسية هي لفيفة التوراة، وأوقات التلاوة أمام جمهور المُصلين. ولفيفة التوراة هي عبارة عن صفحات كبيرة من الورق، وتكون مركبة على عصاوتين خشبيتين حتى يسهل لفّها ورفعها وحملها، بموجب تقاليد اليهود الأشكناز، تكون مقابض العصاوتين مغلفة بتيجان أو بقمم مصنوعة من معدن ثمين، وتكون لفيفة

التوراة مربوطة بوشاح، من قماش عادي أو مطرّز، لا يُنزع إلا ساعة تلاوة التوراة على الملأ، كما تغطيها كسوة بشكل ستارة، تكون عادة مطرّزة. ويتدلى من مقابض العصاوين رداء الصدر، الذي يذكر برداء الكاهن الأكبر، ويغطي جزءاً من كساء الخزانة، أما لدى يهود الشرق الأوسط (السفارديم) فإن لفيفة التوراة توضع في صندوق مخروطي، مصقول ومزخرف، يكسوه عادةً وشاح، وتُصنع معظم الصناديق من الخشب.

يُوضع أمام خزانة الأسفار مصباح فني مزخرف، يرمز إلى " النور الأزلي " في الهيكل المقدس. إلا أن هذا المصباح ليس من الأدوات الطقسية الضرورية في الكنيس. تزين جدران الكنيس بأدوات طقسية مختلفة، منها مثلاً ما يسمى بـ "شيفيتي", وهو صورة فنية للمزامير "جعلت الرب أمامي في كل حين" (بالعبرية: شيفيتي)، محاطة بإطار فني كذلك قد تُعلق على الجدران بيانات تخص الكنيس وجمهور المصلين، وإشارة تبيّن القبلة نحو أرض الحلم. في الكثير من الكُنس يوجد كرسي مزيّن ومزخرف بأشكال فنية منحوتة، يبقى خالياً أثناء طقوس الطهور التي تجري للمولود في يومه الثامن هذه القطعة من الأثاث تُعرف بإسم "كرسي إلياهو هنافي" (كرسي

إلياس النبي، أي النبي إليشع) طبقاً لما ورد في سفر ملاخي وفيه سُمّي النبي اليشع "ملاك العهد" بالعبرية: بريت، التي تعني طهور أيضاً.

لأكثر من نصف ساعة تلقين بالطقوس وأدوات المعبد، ورتل عليَّ كل الوصايا العشر، وكل الأشجار المفيدة لليهودية، وكل الآيات التوراتية، وتاريخ الأجداد، وزوجاتهم وأبنائهم، حتى صار رأسي مكتبة متنقلة تحمل ملفات الأوراق والحروف والكلمات...

دخلنا في مكان رث طويل لا يكفي إلا لسير شخص واحد، لمسافة عشرين متر بين الأشجار والأشواك، حتى وصلنا لبوابة المعبد، رتلنا أنا وأبي بعض الجمل، ثم دخلنا...

كان وقتها سيد المعبد يقف على درجات ثلاث فوقه مجسم حديدي لنجمة داوود، يرتدي قبعة سوداء ولا يظهر إلا ياقة القميص الأبيض، الذقن الطويلة، رائحة الخشب المنتشرة في المكان، في اللحظة تشعر بأنك طائر والمعبد هو عشك الدافئ، المشهد يضخ في قلبك رهبة وقداسة لم تشعر بها خارج المعبد...

والذي يزيد المشهد قلقاً وخوفاً، تمتم أبي عبارات لا أسمعها إلا في حضور سيد المعبد، يشبك يديه على صدره، ويتقدم ناحيتي متعمداً طرق حذائه فوق أرضية المعبد الخشبية، في لحظة ابتعد أبي عني، كأن دوره انتهى، وصرت أنا بالمشهد وسيد المعبد... وبصوت أكاد أن أسمعه: عزرا نحن نختار كل عشر سنوات ستة رجال من اليهود لأب يهودي وأم يهودية ليحموا الكتاب الحقيقي للتوراة..

قد تقول لماذا وضعت كلمة حقيقي، هذا الكتاب الذي بيدي لم تتغير به أي جملة، لكن ذلك الكتاب على الطاولة الحمراء، أنا غيرت جملا وزدت جملا، فيحق لسيد المعبد أن يُعدل في بعض قوانين الكتاب للحفاظ على سلامة واقتصاد وحرية اليهود في المنطقة، من الأشياء التي عدلتها أني سمحت للرجال اليهود أن يعملوا في المنطقة رغم أن الكتاب الأصلي يقول لابد أن نكون نحن الأسياد والعالم يعمل عندنا...

إن طبيعة التغير لابد أن تكون للحفاظ على حياة اليهودي في هذه الأرض... لا يُمكن أنْ نُنكر نحن اليهود أنّ إغراء آدم بالخلود هو أحد دوافعنا الخفيّة، ربّما أقولها وإنْ لم أستطع قولها لأحد غيرك يا عزرا.

حفاظاً على الكتاب الحقيقي إنّه السبب الذي ينتج عن حالة الوعي الشّديد بصيرورة الزّمن كيف نجعل الزمن خادماً لنا، نحن لا نريد أنْ نموت، نحافظ على الكتاب وننقله مع ستة أشخاص في عدة اتجاهات لننجو من الموت، لكي نحظى بخلودٍ من نوعٍ خاصّ، نحظى بأرض محدودة الدين لكنها في نظر العالم مفتوحة وليس لها حدود.

أصدقائنا في كل مكان هم الذين يستعيدوننا من خلال هذا الكتاب لنبقى في كل أرض وفي كل زمان حتى لو بالمؤامرة، ويستحضرون هالَتنا من خلال حروفنا التّي سطرت في الكتاب ونأمل أنْ تعيش بعدنا أزمنةً عديدة.

التفت إليّ أبي وكان مبتسماً جداً، وكأنه في حفلة شواء لغزال بري، بجانب نهر، ونبيذ العنب تحت أقدامه، يبدو أن كلام سيد المعبد شيء كبير _ أُعجب أبي به ... أشرت له أن أتحدث، هز رأسه لكي أتحدث: سيدي هل أنا من الستة الذي سيحملون الكتاب...؟

- عزرا نحن اخترناك لتذهب إلى أرض إسرائيل، إسرائيل قبل أن يذهب إلى مصر كان له ذرية من أولاد وبيوت ونساء وطقوس

وحقول قمح، حمير وأغنام وأعشاب... لا بد أن نعود إليها.. تركها أبونا إسرائيل وذهب لولده يوسف بمصر.

- أنت تعلم يا سيدي أنني صغير ومريض، ولدي ضعف جسدي.

- عزرا أنت ستكون قوياً حين تحمل الكِتاب، لا تفكّر في الماضي ولا تتعلق بشيء به، لو أنك كنتَ بخير كامل لاخترتك أن تكون مقاتلاً أو تحمل بندقية، معك جسدك الصغير، لكن الرب اختار ذلك.

الكتاب سوف يجعلك قوياً رغم ضعفك، أحيانا نحتاج إلى إضافة بعض الجنون لحياتنا لنغيّر الروتين اليومي الممل، من يقدم لك الاهتمام فلا تتركه، ولا تهمله، ومن لا يهتم بك، ولا يسأل عنك فلا تضيع وقتك في التفكير به.

كل الذي قرأته أنت الآن في أعلى الصفحات، كتبتها بعد لقائي بالسيد نسيم الكرتاوي، لأنه قال لي أكتب كل شيء يتحرك أمامك، فأنا لم أبخل بشيء، لم أترك المادي أو المعنوي اللذان مرا علّي منذ أن وجدت القدم الخشبية فدونتها، قرأت كثيراً وتجولت في التاريخ، والجغرافيا ومجلات الموضة، وجلبت كتاب مطبخ السيدة منال لعليّ أضيف رائحة التوابل على قصتي، جلست مع كل نساء المخيم، جربت أن أمشي على قدم واحدة، ربيت ذقناً، وحلقتها مراراً، كنت أظنّ أن الشكل يؤثر على الكتابة ويمنح الكَاتب طاقة جديدة، ولكن لم أزر السيد نسيم إلا مرة واحدة فقط، حين بدأت أن أسفر.

فقدت صديقي آسر، رغم أنه تردد على بيتي، وعلمت أنه صار تاجراً كبيراً للخردوات، وكل حَمَلَة السلاح أصبحوا أصدقائه، صرتُ نحيفاً، صمتُ كثيراً لأتجول في عقول الناس.

بدون سابق إنذار توقفت عن الكتابة، وشعرت أني لا شيء ولا أقدر أن أكمل الكتابة، وأصبحت كالغراب حين أعجبه مشية الطاووس،

حاول أن يقلدها لكن لم يقدر، فحاول أن يرجع إلى مشيته الأصلية وأيضا لم يقدر، وصار بعرجة.

أنا في البرزخ لا كاتب ولا بائع خردوات، أنا لن أشبه السيد نسيم الكرتاوي ولا غسان العادي، الذي سيعيش عادياً جداً، ويموت رجلاً عادياً ويُدفَن في قبر عادي جداً. فقدت كل شيء، حتى ظلي لم يرافقني كثيراً، وأمي لم تعد تطلب مني إلقاء القمامة ولا شراء صحن الفول، وأبي كلما مرّ عني طرح السلام مع بحة عطف. استمر هذا الحال لأكثر من ستة شهور كاملة، واقفاًلا أتقدم ولا أرجع، كأني أمشي على الماء.

****

وقتها زرتُ السيد نسيم، وأعطيته ما كتبت، قرأهُ على عجلٍ كأنه يعرفه من قبل، وقال: كل الشخصيات والأماكن التي كتبتها تشبه الأعرج، كلها شخصيات لم تُكمِل طريقها، شخصيات عرجاء، تتوقف فجأة، وأشار بيده إليّ، أنت يا غسان على الطريق السليم، لكن كيف تكمل ما بدأت به؟ سوف تُسخّر لك الأشياء مرة بشكل واقعي، ستكتب قصتك بدون تعب، عليك أن تحفظ فقط الصور والأوراق والكلمات والرموز التي وجدتها داخل القدم الخشبية، ويكون عقلك هو دليلك في التفسير والتحليل. احتسينا القهوة مرتين، ودخن هو عشرات السجائر، وصار يتحدث كأب وله أسرة ولا يقدر على إطعامها، وأنه يبيع القهوة على الرصيف منذ زمن؛ ليعتاش ويدخن ويقابل أصدقائه الكُتّاب ويحصل على صدارات الكتب الجديدة، ويسمع قصص المارة، ويتأمل نساء الرصيف، ويهدي القهوة في الصباح لمجانين الرصيف دون ثمن، إنه ينتظر أن يمر بائع الكعك (الفينو) ليشتري واحدة، نسيم يهتم بثيابه ويضع نظارةً سوداء ليخفي سواد عينيه المسكون بالقلق والخوف الذي يحتله المكان.

قبْلَ أن أغادر الرصيف، أمسكَ يدي وضغط عليها: إياك يا غسان أن تتبع لأحد أو تنتصر لأحد ولا تقل رأيك الشخصي، ولا تُصدِر الأحكام المسبقة_ مَنْ سيدخل الجنة أو النار؟! حتى لا يلاحقك شيوخ المساجد، أو يلفظك دعاة التحرر، كن بين الواقعي والتجريدي، لا تكتب المكان ولا تكتب الأرقام، حتى إن أخطأت بها، فليكن مبررك أن التاريخ الذي وصلنا يكتبه الأقوياء، وأن كل فكرة لها نقيض، ولكل دجاجة بيضة، أقصد لا تميل لأحد، فقط اكتب لتنقل حدثاً قديماً بشكل مغاير عن الحقيقة. رغم الشحنة التي حصلت عليها، لكن لا جدوى منها، جلستُ في الورشة، وبسطت الصور والأوراق والكلمات التي كتبتها على الورق الأبيض، مرت ساعات طويلة وأنا أتأملها، كأني أمارس رياضة اليوغا، كحيوان الغابة يظل صامتاً لفترات أمام فريسته دون حركة أو همسة، ينتظر الفرصة المناسبة لينقَضّ عليها. غفوتُ على الأوراق، وترك بعض الحبر الأزرق أثراً خفيفاً على ملامح وجهي، كان الباب الداخلي للورشة الذي يربطها بالبيت مفتوحاً، فدخلت أمي وهزت كتفي، ففزعتُ وكاد قلبي يتوقف، كأني كنتُ أغوص في كابوس ثقيل يشبه (الجاثوم).

أمي أيضاً فزعت مني، وقالت بصوت مسموع [بسم الله الرحمن الرحيم، لله الأمر من قبله ومن بعده] ابتسمتُ في وجه أمي، علّها تصدق أني بخير، أخبرَتني: أن صديقي آسر مرّ البارحة وأخذ صورة بطاقة هويتي الشخصية، أخبرني أنه سجلّ اسمّك في عمل مؤقت (بطالة تنظيف الشوارع) تابع للبلدية. إن شاء الله يطلع اسمك في البطالة، وربنا يفرجها عليك وعلينا. لم يمرّ وقت طويل إلا وجاء آسر مرة أخرى على بيتنا، وكان مبتسماً، ودخل الورشة، وقال: طلعَ اسمك في البطالة، غدا سنذهب معاً لنعمل لمدة 22 يوم سيحصل الواحد منا على ثلاثين شيكلاً يومياً مقابل العمل. لكن يا غسان أخبرهم أنك صاحب شهادة كبيرة يمكن يجعلوك مشرفاً على العمال، أهوَن لنا من حمل المكانس وتنظيف الشوارع.

نقطة تحول في حياتي لم أكن أخطط لها أبداً، انفتحت شهيتي على الطعام، أكلتُ بشراهة، وفي الصباح ذهبت لبيت آسر، لنذهب لأول يوم عمل في تنظيف الشوارع.

وصلنا لمكان يوجد به عشرات العربات التي تجرها الحمير، ومئات المكانس والعربات ذات عجل واحد، وطابور كبير من الرجال يلتفون حول الرجل المسؤول عن توزيع العمال في الشوارع وتقسيمهم لمجموعات. غاص آسر بين الرجال وصار يقاتل بشراسة وصرخ بينهم _ أين سيكون اسمه؟ وفي أي مجموعة عمل؟ أما أنا فوقفت جانباً لم أتحرك، أراقب ماذا سيحدث، وأنتظر توزيع اسمي للعمل.

جاء آسر ناحيتي، وأخبرني بأن المسؤول ينادي على اسمك، توجهت إليه، وأخبرته أنا غسان، دققت في ملامحه كنت أقول له أأنتَ السيد نسيم؟ يخلق من الشبه أربعين، لكن تراجعتُ، عاد اليقين مرة أخرى أنه السيد نسيم، نفس الملامح ونفس العيون، أشار المسؤول إليّ أنت يا غسان ستكون معلّم (مسوؤل) المجموعة معك عشرون عامل وعربة يقودها حمار، وعدد من المكانس.. وعليك التوجه للشارع الغربي للمدينة، يبدأ العمل الساعة الثامنة وينتهي الساعة الثانية ظهراً، وتأتي لتسلِّم الأدوات بعد نهاية اليوم، وكُن حازماً مع العمال، أريد الشوارع أن تلمَع خالية من الأتربة والقمامة، عليك التخلّص من الحشائش والحصى والحجارة، كنت أهزّ رأسي بالموافقة، وكدت أقول له: أأنت

السيد نسيم؟ لكن آسر دخل على الخط، وقال: يا مهندس حسين أريد أن أكون مع صديقي غسان في المجموعة، ابتسم في وجهي ابتسامة تشبه ابتسامة السيد نسيم ووافق على طلب آسر.

ذهبنا إلى الشارع المحدد، وكان سائق الحمار شاهر فيتو متزوجاً من امرأة جارتنا في المخيم، وصار يقص قصته أنه من البدو، وأنهم بطلوع الروح وافقوا على زواجه من زوجته لأنها مهاجرة (لاجئة)، والمهاجرين لا يتزوجون من أهل البلد ولا من البدو.

سألني شاهر: هو يا أستاذ غسان لماذا أنتم لا تتزوجون من أهل البلد [كان سؤالاً صعباً]؟ عندنا أمل كبير بالعودة إلى بلادنا، لو تزوجنا من أهل البلد أو البدو يمكن أن نفقد الأمل بالعودة.

شاهر: معقول يا أستاذ هذا الكلام أنكم راح ترجعوا.

رددت بنفَسٍ وطني: أكيد.

(كأن كلامي لم يقنع شاهر، فضرب حماره فصار يرفُس، وذهب بعيداً عني).

كان صديقي آسر كان خبيراً في التجارة وصار يتفق مع العمال العشرين على البيع والشراء، وكل يوم يبيع ويشتري منهم، وبعد المربح يجلب لي العصير والبسكويت.

وفي يوم حار جداً، والغبار يتطاير والذباب لا يرحم جلدنا من اللدغات، والشمس تمارس شبابها وعنفوانها علينا.

كان يوجد بيت طويل وعنده ظلّ بارد (هواء غربي) جلستُ وجاء جميع العمال وجلسوا بالقرب مني، وطرق أحدنا على باب البيت الطويل وطلب الماء المثلج، وصار العمال يشربون والتفوا حولي.

اكتشفتُ بأن لكل واحد من العمال مهنة يجيدها، مثل لقاح البلح، وصناعة الفسيخ وبيعه، وتربية الحمام وترويجه في الأسواق، واحد كان شيخ أعشاب أي أحد يشكو من مرض يَصف له عشبة كعلاج وطريقة تناولها، ومنهم من يعمل صياداً على مركب يسرح للصيد طوال الليل ويأتي للعمل شبه نائم، وكلما أخبرته لابد أن تشارك زملائك في العمل، يسرد ليّ قصص رحلة الصيد وأنواع السمك التي

اصطادوها، وعن السمك الفاخر وكيف يأتي الرجال الأغنياء إلى مركز (حسبة الصيد) ويشترون الأنواع غالية الثمن....

الكثير من المهن التي اكتشفتها، لكن أحدهم شدني بحديثه كونه يحب أن يربي الطيور الغريبة وخاصة المهاجرة، وقد أخبرني أنه حصل على طائر بني اللون يطلق عليه (اليهودي) نزل الاسم على قلبي مثل الصاعق، وبدون مقدمات سألته: لماذا يسمى اليهودي، رد: هذا الطائر يربيه اليهود عند الحدود، من أنواع طيور اللقلق، ويصدر صوتاً مثل طرقات المطرقة على الخشب، يستخدمه اليهود للحراسة لتنبيههم أن أحداً اقترب من حدودهم.

****

[الثقافة السائدة عندنا بأن كل إسرائيلي يهودي، وكل يهودي إسرائيلي، والقليل منا وخاصة المثقفين والدارسين يَكسر هذه القاعدة بأن ليس كل يهودي إسرائيلي، تجدهم من بلاد المغرب العربي يعيشون في إسرائيل ومن روسيا ومن أوروبا، لكن عندنا كلمة يهودي تطلق على كل واحد احتل أرضنا، رغم أن الأشياء والأدوات جيدة الصناعة ولها فاعلية كبيرة نفتخر بأنها صناعة إسرائيلية ولها ثمن غالي، أما كل حدث به عنفٍ أو قتلٍ أو خيانةٍ أو وعودٍ زائفةٍ ننسبها لليهود، وهذه منطقة حمراء جداً].

منذ أن أخبرنا العامل عن الطائر اليهودي، انتعشت قصتي مرة أخرى، وطيف السيد نسيم صار يدور حولي، والقدم الخشبة ترقص أمامي، كأني تراب جاف متشقق زاره الغيم المحمل، رائحة الأرض بعد المطر تستحق أن تكون عطراً.

فكان مني أن أسأل سؤالاً أمام العمال العشرين: هل يوجد يهود أو إسرائيليين عاشوا عندنا؟ طبعاً لا أقصد الجنود الذين يركبون سياراتهم ويحملون بنادقهم ويركضون خلفنا في الشوارع، لكن أقصد من كانوا

يعيشون معنا، يأكلون من صحوننا وطعامنا، يدخلون بيوتنا، ومكثوا في تفاصيل حياتنا، ولا نعرفهم؟؟؟؟؟

صمت الجميع، وأنا أيضا صَمَتُّ خوفاً من نظرات العمال ليّ، وصديقي آسر كان واقفاً وجلس يتمتم بكلمات لم اسمعها.

في لحظة انفجار صار العمال يتحدثون عن شخصيات يهودية عاشت بالفعل عندنا سنوات، وقدموا خدمات لدولتهم، بل قاموا بعمليات أثرت على ملامحنا، وكادت أفعالهم تصل إلى الانتصار الكامل على معنوياتنا التي كادت تنهار منهم. دارت قصصهم عن ست شخصيات عاشت بيننا.

دونتُ بعض الأسماء والملامح والمهن التي كانوا يمارسونها في شوارعنا، كان من المخيف أن تحصي حركاتهم وعدد السنوات التي مرت عليهم عندنا، رغم أنهم ذكروا شخصيات ولم يذكروا الأعرج لكن بدأت ملامحه تنضج داخلي، والصورة والأوراق بدأت تفسر نفسها.

كان عدد أيام العمل المؤقت قد شارف على الانتهاء، حصلت على أجرتي وكانت مبلغاً لا بأسَ به، اشتريت كل ما يلزم لأجلس في بيتي مدة طويلة أكتب ما سمعته من قصصٍ حول اليهود.

****

[بدأت أكتب] بعد أن حصل عزرا على التكليف من رجل المعبد أن يحمل كتاب التوراة إلى أرض الميعاد.

وصل الخبر لصديقه الفرنسي ليوني، وأصر أن يذهبا ليحتفلا بهذا التشريف، فمرا على حانة الروسي ابيارزوكوش الوحيدة الموجودة في كل ريف تولوز، تعود هذه الحانة لرجل روسي تابع للمافيا العالمية، بعد أن تقاعد عن القتل والتهريب، فتح الحانة ليختم حياته بها، في الحانة تنتشر الفتيات وبعض الكؤوس الكبيرة وزجاجات من النبيذ المعتق من العنب الإيطالي، يوجد براميل كبيرة مصفوفة على طاولة، وكل برميل له صنبور من الخشب تدفع ثمن كأس فارغ ومن ثم تملؤه بالنبيذ، وخلف الطاولة رجل مسلح بمسدس طاحونة، أما أمام الحانة يوجد بعض النساء تعود لجنسيات اسيوية، يمكن أن ترافقك إحداهن بثمن كأسين نبيذ لمدة ساعة كاملة في مكان مخصص خلف الحانة، انتبه عزرا لفتاة جميلة يعرفها كانت تتردد مع عائلتها إلى المعبد، حاولت أن تصده في بداية الأمر، لكنه أصر في الحديث معها، لكن قبل أن يبدأ الحديث تدخل رجلان مسلحان ضخمان، فلطما عزرا على وجهه وأمراه أن ينصرف من هنا. أشهر أحدهم مسدساً وأطلق النار

على قدم عزرا، شده الفرنسي وصارا يركضان، في الشارع حتى وصلا إلى المعبد، لقد نزفت من قدمه دماء كثيرة. [وصية كل يهودي حين يواجه مشاكل مع أحد الغرباء في المدينة أن يتوجه إلى لمعبد، ويبتعد عن بيته أو أقاربه، والمبعد يتكفل بحل المشكلة]. توجه عزرا محمولاً على كتف صديقه عند بوابة المعبد، وقد وصل الخبر لهم، استقبله رجلان من المعبد بثياب سوداء، حملاه على حمالة بيضاء، ونقلاه إلى مكانٍ بعيد إلى الداخل، خرج وقتها رجل المعبد، وتحدث مع الفرنسي، وأخبره أننا علمنا بالخبر، وأكثر من مرة كنا نمنع أي يهودي الذهاب لهذا المكان، أما بالنسبة للفتاة التي أعجب بها عزرا فهي (راحيل) يهودية تعمل لصالحنا وهي تابعة لنا ويوجد مهمة موكلة إليها هناك، إعجابه أفسد علينا ابتزاز الروسي ابيارزوكوش.

أشار للفرنسي بالانصراف، طالباً منه ألا يحدث أحداً بما رأى أو سمع، وكان يحمل دلو ماء وقطعة قماش ونظّف آثار الدم، وصار يمشي بالاتجاه الذي سلكه رجاله.

عزرا ممدٌ على سرير من الخشب، وحوله رجال المعبد وشوندر أحد تلاميذ الدكتور كوهين نفشي، كانت قدمه تتدلى من أثر الرصاصة، العظم مهشم، أشار التلميذ بأن تقطع القدم لأن علاجها سوف يطول، لو وصل الخبر لجنود هتلر سنقع في مشكلة كبيرة، سيُكشف سرّ هذا المكان. اقتنع رجل المعبد بكلام شوندر، أخرج من جيبه شراباً سائلاً، وأمر عزرا أن يشربه، فغاب عن الوعي، وبدأت عملية البتر، بعد ساعات من العمل المرهق بأدوات بسيطة (مقص ومشرط) وبعد النبيذ حديث التخمير. فتح عزرا عينيه فوجد أمه وأباه يقفان بجوار من رأسه، وشوندر كان يجمع أدواته في حقيبة وينوي الذهاب. ملامح الحزن والعطف تملأ المكان، سأل: أين أنا؟ لماذا لا أشعر بقدمي؟ رد شوندر: أنت الآن موجود في المكتبة السرية للدكتور كوهين نفشي، قد أمر رجل المعبد أن تبقى هنا لمدة ثلاثة شهور حتى تتحسن قدمك، نحن اضطررنا أن نبتر قدمك لأنها علاجها صعباً، يوجد حولك نسخ من عدة كتب للدكتور وخاصة العلاج الجلدي والعيون يمكنك أن تقرأها كلها وتحفظها في فترة المكوث هنا، لا تتحرك كثيرا، أمك وأبوك سيغادران المكان بعد قليل، ومن ثم سيخرجان من

الريف بشكلٍ كامل، أمرنا نجاراً أن يصنع لك قدماً خشبية وحذاء خاص، حين تلبسها ستتعلم كيف تمشى عليها، لكن ستبقى متلازم العرجة. نام عزرا لمدة يوم كامل دون حراك، فقط مجموعة أحلام غير مكتملة كقدمه المبتورة، طرق الباب، ودخل رجل يحمل طعاماً وشراباً، ودواء (مغلي نبتة السكرانة) ونصحه أن يشرب المغلي عند الشعور بالألم لأنها تساعد على النوم... يوم بعد يوم صار يزحف، ثم صار يقفز على قدم واحدة ويتجول في المكان، وأخذ يواصل عدّ الكتب، ومن ثم تقليب الصور والرسومات، اهتم بالعناوين، ومن ثم انطلق ليقرأ ويقلب جميع المخطوطات، وكان عنده ورق وقلم حبر وصار يدّون كل معلومة جديدة تمر عليه، خلال جلوسه استطاع أن يقرأ كل ما حوله من نسخ ومخطوطات وحفظ المعلومات الموجودة فيها.

وقبل أن تنتهي الشهور الثلاثة، دخل عليه رجل المعبد وشوندر الذي يحمل في يده قدم من خشب بلون بني وحذاء.

جلس عزرا على طرف السرير، وقام شوندر بتركيب القدم، وساعده على النهوض، في بداية الأمر كاد أن يسقط، ولكن حاول وحاول حتى صار يجيد المشي.

- هل قرأت المخطوطات والنسخ الموجودة هنا يا عزرا؟

- كلها يا سيدي، بل حفظتها، ودونت الكثير من المعلومات.

- كنا نريد أن نرسلك لتقاتل وتحرس المستعمرات والأراضي التي اشتريناها في أرض الميعاد، لكن بعد إصابتك، قررنا أن نرسلك كطبيب تعالج الناس هناك، وتنقل لنا الأخبار حول المناطق.

- يا سيدي كيف ليّ أن اكون طبيباً، أنا لم أمارس هذه المهنة؟!

- يكفي أنك قرأت كل ما هو موجود هنا، نحن نثق بك، عليك فقط البدء والشجاعة في علاج الناس، شوندر سوف يختبرك لتكون جاهزاً.

- سأله شوندر: ما هو الجرب؟

- تردد في بداية الأمر، هي حشرة صغيرة جداً تُصيب الجلد، وتعالج بمخلوط الكبريت الأصفر والزيت.

- بالنسبة لاحمرار العيون وألمها.

- مخلوط الفجل الأبيض مع مغلي الشاي.

- يبدو أنك يا عزرا جاهز أن تخوض تجربة العلاج، يوجد في هذا الكيس الكثير من حبات السكرانة، اطحنها مع كل وصفه لأنها مخدر وتساعد المريض على النوم، حاول أن تزرع بذورها في كل مكان تصل إليه ولا تخبر أحد عنها.

الآن أنت جاهز للذهاب والسفر، سينتظرك عند المساء أناس سينقلونك إلى مصر وتذهب عند عائلة يهودية هناك وترتاح لمدة يومين، ثم تدخل إلى غزة، وتذهب إلى حارة اليهود، هناك ستجد عائلة تطحن القمح وتخبزه وتبيعه، ستعمل هناك ثم تنتقل إلى الشمال عند المعسكر اليهودي، وستنطلق في العمل كطبيب في القرى، لابد أن تكون محبوباً، ويلتف الناس حولك ولا يشعرون أنك يهودي، وحاول أن تعالجهم مجاناً، لتحصل على المعلومات المجانية.

أما الكتاب الذي كنت ستحمله إلى هناك، لا داعي أن تشغل نفسك، نحن منذ سنوات بدأنا نحول كلماته إلى أفعال وأحداث، بيوت وعائلات، وقصص وتاريخ، سنبني وطننا كما نراه حديثا يليق بكل يهودي في كل العالم.

- وقدمي التي قطعت لأني يهودي... كيف سأركض مرة أخرى من العدو الذي يلاحقني في كل لحظة، أشعر أنني لو ذهبت إلى أقصى الأرض سيلاحقوننا.

- صدقني يا عزرا شيئان يحرمانِنا السعادة: العيش في الماضي، ومُراقبة الآخرين هي الغبطة التي ندركها حينما نتحرر من عبودية الأهواء ومن الخرافات والأحكام المسبقة. إن السعادة البشرية التامة تكمن في رؤية الجوهر اليهودي قد تكون السعادة أحياناً في ترك الأشياء، أكثر من الحصول عليها، الإنسان لا يحصل على السعادة الكاملة إلا بعودة روحه إلى العالم الآخر، السعادة هي أن يقال اسمك عند الحاخامات أنه حمل أفعال الكتاب لمكان جديد، السعادة على ما تستطيع إعطاءه لا على ما تستطيع الحصول

عليه، وضوح الغاية عند الإنسان يسبب له الاطمئنان ويؤدي لها، هي عندما يتوافق فكرك وقولك وفعلك، عندما تَدخل إلى قلوب الآخرين ستعرف عنوانك، لن تأتي أبداً لأولئك الذين لا يُقدِّرون ما لديهم من عبارات عن الطموح مهما كان القادم مجهولاً، افتح عينيك للأحلام والطموح، أنت سوف تكون في أرض الأحلام، فَغداً يوم جديد، وغداً أنت شخصٌ جديد فغالباً ما يكون الطموح أعظم من جرأة صاحبه، وأكبر من إرادة الفعل لديه. أكبر المحيطات في العالم يتكون من قطرات صغيرة من الماء، اجعل اهتمامك بالفرصة التي تنتزعها، وليس في الفرصة التي تُمنح لك.

- سأقبل بحمل روح وثقافة الكتاب إلى الجهة التي تريدني أن أذهب إليها... لكن ماذا سيحدث لأبي وأمي من بعدي ...؟

- الآن أنت في مهمة أكبر من العطف والحنين، حين تصل إلى أرض الأحلام سوف تدرك أن الأرض أكبر من فكرة البيت أو الأب أو الأم...

ركبت السفينة ومازالت قدمي تؤلمني، وقد زاد الإعوجاج في المشي يظهر بشكل واضح، كان سطح السفينة مكتظاً بالركاب أغلبهم من اليهود، والدليل كلهم يتمتمون عبارات وكلمات تشبه التي كنا نرددها في المعبد. بعد سفر طويل، كمان الجوع والعطش يعربدان على السفينة، وصلنا إلى شواطئ البحر المتوسط (ميناء الإسكندرية)، وجاءت عائلة يهودية تسكن عند البحر، وتعرفت عليّ، ورافقتني إلى بيتهم، كان البيت جميل به عمران ويوجد به غرف وأثاث أنيق ومزين بتماثيل يهودية ولوحات وحروف من اللغة العبرية، جلست عندهم يومين، أنتظُر انتقالي إلى غزة حيث حارة اليهود هناك.

بعد ذلك وعبر قطار طويل يربط بين مصر وقطاع غزة، وصلتُ إلى حارة اليهود، عبر طريق رملي لا يتجاوز المتر في المقبرة الشرقية، يوجد اثنا عشر قبراً مصفوفة بشكل هندسي قريب إلى نجمتين متداخلتين، القبور تعود لبعض اليهود الذين عاشوا في هذه الحارة، أطلق الاسم عليها (حارة اليهود) من السكان الذين حولهم ويتعاملون بالتجارة وأنهم جاؤوا في بداية القرن التاسع عشر عاشوا بالحارة وسبب وصولهم لهذا المكان، كان في عصر الفتوه حيث هزم الجد الأكبر

أمام فتوة مصري في نزالٍ مشهور، وحين خسر هذه المكانة بين الناس قرر الهجرة، فكانت وجهتهم إلى قطاع غزة، كانوا يملكون مطحنة بدائية صغيرة تعمل بالتروس، يدور بها حمار مغمى العيون، يطحنون القمح والشعير للمزارعين، وكان بعضهم ماهراً في صناعة الخبز وبيعه للمسافرين والتجار الذي يمرون من غزة إلى ميناء أسدود البحري القديم... عِشتُ مع هذه العائلة الكبيرة لعدة سنوات، زاد تعلقي بالأعشاب والعلاج، وانتشرت شهرتي في المكان وازدادت شهرة الحارة، وصار الناس يتوافدون للخبز والعلاج. مرَّ أحد من التجار اليهود الذين يحملون بعض البضائع من القرى الفلسطينية إلى مصر مثل الصابون وزيت الزيتون والتين المجفف والخروب، وقد زار المكان، وأخبرني بأن رجل المعبد الكبير يطلب منك التوجه إلى الشمال، يوجد معسكر للجنود، هناك عمل كبير ينتظرك لليوم الموعود. ودعت الخبازين، حملت أدواتي الطبية وبعض الخبز ومسدس حصلت عليه هدية من الخبازين، متجها للعمل في القرى الشمالية... من العجيب والغريب في رحلتي من غزة إلى الشمال أنك تصل للعنوان بسهولة وبسرعة، يبدو مَن يخطط لنا في التنقل خبير.

يعتمد السكان في الشمال وأغلب القرى في تطبيبهم وعلاجهم على الأطباء الشعبيين سواء أكان في علاج البشر أو الدواب.

[بعد قيام عدد من المستوطنات القريبة من القرى، أخذ السكان يتوجهون للعلاج فيها، تجدهم يجرون بقرة بغية علاجها بسبب رفضها الطعام، وتجد رجلاً يحمل طفله الصغير الذي يشكو من ورم بالقدم، وقد عرفوا أطباء مشهورين، ومنهم: غزال في بتاح هتكفا، وأم يوسف في كفار سابا، أمّا عزرا كان يتجول بين القرى ليعالج الناس التي تسكنها، فطابت هذه الفكرة بين الناس، وصار يوزع جدولاً.. كل يوم في قرية].

بدأ صيته ينتشر بين الرجال والعائلات الكبيرة، الطبيب الأعرج يجيد علاج العيون وأمراض الجلد ولذغات الحيات والعقارب، وحكة الجلد والحبوب الحمراء، والجدري، وخاصة الأطفال من السعال والحمى.

كان يواجه عزرا بعض الأسئلة من الرجال، أأنت مسلم؟ من أين أتيت؟ كم كلمة تستطيع أن تحكيها بلغتنا؟ لماذا تعرج على قدمك؟

لم يتردد في الإجابة بأن حبه للطب وعلاج الناس هو الذي جاء به إلى هنا. وحين يشتد النقاش حول الديانة، يقول: إن الرب واحد والأنبياء يتشابهون.

قدّمَ غسان شخصية الطبيب الأعرج بشكلٍ مقنعٍ، واستطاع أن يصنع قصة لسبب عرجه، وكيف امتهن الطب وعلاج الناس، بعد أن كان مرشحاً لحمل الكتاب إلى بلاد الميعاد.

جعله غسان محبوباً بين الناس وأصبح لديه قبولاً واسعاً بين العائلات قبل الهجرة، بل كانوا ينتظرون قدومه في اليوم المحدد بلهفة، وكل واحد في القرية يحمل مرضا أو شكوى من شيء، فقد استطاع عزرا أن يوفر العلاج مجاناً وكان يجلب الطعام المعلب والأدوية من معسكر الجيش الذي احتل جزء من أرضنا والتي كان ينطلق منها عزرا. لكن في الصورة القديمة يوجد بها أربعة رجال وامرأتان، استطاع أن يجدَ رجلاً واحداً يتوسط الصورة، وتأكد أن هو كبيره، وظله في الصور أطول، وكل من حوله ينظر إليه إلا الأعرج شامخاً ويشيح نظره إلى شيء مجهول.

في هذه اللحظة تذكر غسان قصص عمال النظافة عن اليهود الذي سكنوا قطاع غزة وذاع صيتهم في الشوارع وبين الناس وصاروا حكايات تروى لكل الأجيال. ركض مسرعاً إلى بيت صديقة آسر، وطلب منه أن يرافقه بزيارة بعض عمال النظافة الذي دوّن أسمائهم، لأنهم رووا قصصاً عن اليهود. اشترى آسر دراجة نارية تصدر صوتاً مزعجاً، يركبها ليجلب الخردة من أماكن بعيدة، ويذهب إلى الأسواق والزبائن وصارت الشواكل تجرى بيد آسر. وطلب منه: يريد الذهاب لبعض العمال منهم: يوسف صالح، وسيد محسن، وهشام حمدي، راجي بنور، وجبر النادي، وسعد أبو حجر. ولنبدأ رحلتنا مع العامل يوسف صالح الذي تحدث عن اليهودي الذي كان يحرس بئر الماء رقم 12.

فأنا أعلم أنك اشتريت منه مؤخراً لقاح البلح وصرت تبيع اللقاح للشجرة الواحدة بعشرة شواكل، لكن يا آسر: ما علاقة لقاح البلح بالخردوات؟ يا صديقي: حين كنت أحمل اللقاح كنت أذهب إلى أمكان مزروعة بأشجار كثيرة، فكنت أشتري الأشجار الجافة الميتة وأبيعها حطباً للنار وكان يشتريه مني رجال التنظيمات لأنهم كانوا يقيمون بيوت عزاء

للشهداء، ويتباهون بأن تنظيمهم عنده شهداء أكثر من غيره، والسعر الذي أطلبه كانوا يدفعونه.

[كانت بعض التنظيمات تشن هجمات على جنود المستعمرات المجاورة للمخيم، دون تخطيط، فكان من يطلق النار أو يزرع العبوة المتفجرة في طريق سيارة الجيش، وحين تزداد العمليات يزيد تمويل التنظيم، ويزداد حبه في قلوب الناس، وخاصة في المخيمات فهو في نظرهم المخلص لهم من هموم المخيم، لكن اندفاع الشباب بدون تخطيط لهذه العمليات كان يسفر عنه شهداء كثر، وتنتشر صورهم على الجدران، وتضج بيوت العزاء بالمسلحين ويكون جهاز الصوت الضخم سيد المشهد، فالكل يتسابق لنعي الشهيد، ويتباهى الجميع بأنهم أوقعوا خسائر كبيرة في صفوف الجيش].

وقبل أن يوافق آسر لمشاركة غسان في هذه الرحلة الطويلة طلب منه أن يوفر ثمن وقود الدراجة، فوافق بدون تردد، أما الطلب الثاني قبل أن نبدأ لابد أن تمرّ على السيد نسيم الكرتاوي وتُطلعه على ما كَتبْت

من جُمل وبماذا تخطط لإكمال قصتك التي خربت بيوتنا وراح تجوعنا؟!

رد غسان: لا وقت عندي لخياله، لأني منَحْت وقتي للحقيقة.

****

وصلا معاً إلى يوسف صالح، كان مزارعاً، يزرع أرضه التي ورثها عن أبيه، هو من عائلة تملك أراضي، لقد حافظوا عليها من العمران الذي انتشر في قطاع غزة، فكانوا يزرعون المحاصيل الموسمية مثل الفجل والجرجير والبصل والكزبرة والبندورة البعلية [البعلية التي تزرع طبيعي، في ذلك الوقت انتشرت زراعة الدفيئات البلاستيكية، لأنها أسرع في الإنتاج، وتستخدم المواد الكيمائية في الزراعة، حيث لا طعم ولا رائحة للخضروات التي تزرع فيها، لكن فكرة الدفيئات البلاستيكية جلبها المزارعون من إسرائيل وانتشرت في غزة كالنار في الهشيم] لكن عائلة يوسف وحدها من حافظ على الزراعة العادية الطبيعية، وصاروا أكثر شهرة، وكان الطلب على المنتج البلدي عالياً لأنه صحي جداً.

جلسنا معه تحت شجرة البلح التي كان آسر يبيع لقاحها، بعض المزارعين حين يزرع عالول البلح يتمناه ذكراً حتى يبيع اللقاح ويربح منه أكثر من قطوف البلح البلدي.

[يذكرني موضوع التلقيح، بأن أحد العمال سرق قطة من نوع روماني من الأنواع النادرة في هذا العالم من بيت في إسرائيل، لها فراء أبيض كثيف، وذيل طويل جذاب، وأنفها مميز، وجلبها إلى قطاع غزة، ودفع له ثمن غالي جداً فرفض العامل أن يبيعها، لأنه أراد أن يلقحها وتنجب قطط كثيرة ويبيعها، وفي شهر شباط، ونُصحَ أن يأخذها إلى رجل يملك قط من نفس النوع ذكرا ويلقحها منه، حملها في صندوق حديدي ليلا وأخفى ملامحه، حتى لا يقع تحت وطأة السخرية من رجال المخيم، وذهب بها إلى القط الذكر، ووضعها عنده في القفص، لكن يبدو أن الذكر لم يكن بحالة جيدة فلم يقم بالمهمة التي أوكل لها، فغضب صاحب القطة الرومانية، وتركها تخرج للشارع، ركضت القطة عند مجمع القمامة الكبير، والذكور البلدية المنتشرة على القمامة قامت بالواجب في شباط، في أقل من عام انتشر نوع جديد في المخيم من القطط نصفه بلدي ونصفه الآخر روماني بألوان لا تجد لها أصل].

طلب غسان من يوسف صالح أن يخبره عن اليهودي الذي كان يحرس بئر رقم 12، لم يتردد في الحديث، [بئر 12 هو من الآبار الأمنية الممنوع الاقتراب منها، يقال إنها تضخ الماء العذب لإسرائيل، ويقال

أيضاً أنها من ضمن اتفاقية المياه بينهم، وقد تقوم حرباً ضروساً بسببها]. كان يحرسه البئر رجل يهودي عجوز كبير تجاوز الستين من العمر، يرتدي قبعة سوداء غريبة لم أجد مثلها في أسواقنا، له غرفة في المكان دائمة الكهرباء، ويوجد عنده طعام معلب مكتوب عليه باللغة العبرية، في بداية الأمر كان الناس يخافون منه، ملامحه قريبة للقاتل، أبيض الوجه وأنف معقوف وذقن مثلثة الشكل، في فترة صار يتردد على المكان شباب ويجلسون عنده ويفتحون التلفاز ويلعبون الورق، ويضحكون بصوت عالٍ، وانتشرت الأفلام الإباحية والمجلات والصور بين عدد قليل من الشباب، وصاروا يدخنون الحشيش، وصار بعضهم يحمل أسلحة غريبة، ويطلقون النار على الناس الضعفاء بدون تهمة، وانتشر القتل في أطراف المخيمات بحجة العملاء، وازداد الوضع سوءً، حيث سمعنا صوت إطلاق نار وجاءت سيارة الإسعاف ونقلت إحدى الجثث، وقيل أن أحد الشباب الذي يتردد على البئر قتل خاله لأنه كان يمارس الجنس مع زوجته، ودخن سيجارة حشيش عند جثثه، انقسم رجال المخيم إلى قسمين جزء مع المقتول وجزء مع القاتل، وصار تبادل لإطلاق النار بينهم، وعرف هؤلاء

الشباب بزوار بئر 12 [يبدو أن اليهودي الحارس كان يُسقِط الشباب في وحل الجاسوسية بواسطة اللذة والمتعة]. اتفق بعض المسلحين على قتل هذا اليهودي، اجتمع خمسة منهم وكان أحدهم أعوراً يحمل سلاحاً طويلاً، واقتحموا موقع البئر، لكن لم يجدوا أثراً لليهودي!

سأل غسان: هل كان حارس البئر أعرجاً، أو له قدم خشبية؟

رد يوسف صالح: لا، لأني دخلت مراراً في الغرفة، كنت أجلب الماء العذب من البئر، كان عادياً جداً وأقدامه سليمة؟

تركنا صالح نجلس تحت النخلة الذكر وغاب، وجاء بعد نصف ساعة بوعاء كبير من الطعام، وقال بصوت به فرح: صنعت لكم لصيمة [طعام مشهور عند المزارعين هو شواء حبات البطيخ الصغيرة النيئة على النار مع الخبز المحمص على رماد النار، مع زيت زيتون وفلفل أخضر بعدد كبير، وبصل وثوم وخضروات يخلط معا بزيادة زيت الزيتون، وتُؤكل باليد دون تدخل الملاعق].

رقص آسر فرحاً، وصار يأكل كرجل الكهف، أما أنا فمعدتي لا تحتمل كل هذا الطعام القريب من طعم حامض النيتريك (مية النار).

ركبت على الدراجة النارية خلف آسر، وبدت ملامح النعاس عليه من التخمة التي أصابته جراء اللصيمة، كلما اقتربنا من دكان كان يركض إليها، ويشتري المشروبات الغازية لتساعده على الهضم، وصار يقود دراجته ناحية سيد محسن.

يعمل سيد من وقت لآخر في صيد السمك على بعض المراكب، هناك بعض الرجال تعلموا الصيد وصناعة القوارب من قلة العمل والبطالة.

[في يوم ذهبنا إلى المدرسة فوجدنا من يقطع الأشجار الطويلة التي كنا نستظل بها، وحين سألنا المدرس: ما سيفعلون بهذه الأشجار؟ أخبرنا: بأنهم يصنعون منها مراكب للصيد، وقبل انتهاء العام الدراسي خرجنا في رحلة إلى البحر، فذهبنا إلى منطقة ميناء الصيادين، فوجدنا الأشجار ممددة، والنجارون يقطعونها إلى قطع عريضة، فأشار المدرس: هذه أشجار مدرستنا، ركضت أنا وصرتُ أتحسس الأشجار، مرةً سرقتُ ممحاة أحد الطلاب الأشرار في المدرسة كإنتقام منه لما يفعل بنا حيث يأخذ طعامنا وعصيرنا في الاستراحة، وقد خبأت

الممحاة في فتحات شجرة الكينيا الكبيرة، فوجدت الممحاة كما هي، هذا شيء كبير! الأشجار المقطوعة تتحول إلى سفن ومراكب بحرية، ونحن تحولنا أيضا إلى سُفن تحمل الهَمّ والتعب منذ أن قطعنا عن أرضنا].

كان سيد محسن يقف وسط سوق السمك وأمامه "فرش" من سمك السردين الصغير، وينادي بأعلى صوته: (لسه صيد اليوم)، (لسه الروح فيها).

أجزم بأن السمك الوحيد الذي يأكله الناس هنا هو السردين فقط لأنه رخيص الثمن، وله فوائد عدة كما يقول خبراء السمك في المخيم، كانت أمي تشتري كميات كبيرة منه، ونأكله طوال الأسبوع مشوياً ومقلياً ومقلوبة مع الأرز الأبيض، وما يفيض منه تضعه أمي في جرة كبيرة من الفخار، وتضيف له الماء والملح وبعد أسبوع تُخرِج حبات السردين ونأكله فسيخاً.

حين شاهدنا سيّد ابتسم في وجهنا، فأخبرناه: أننا نحتاجك في قصة، رد ضاحكاً: بعد أن أبيع السمك، نتحدث كما تشاءان.

لم نقف سوى خمس دقائق، فحضر رجل أنيق واشترى كل الأسماك عند سيد محسن [أبو فضل هو من اشترى السمك، لقد ترك عمله في دولة الكويت بعد الأزمة التي حدثت بين الكويت والرئيس ياسر عرفات حول احتلال العراق، وقتها طُرد كل الفلسطينيين من وظائفهم، فجاء أبو الفضل من هناك وكان معه ذهباً ومالاً كثيراً، واشترى بيتاً جميلاً يطل على المخيم، وتزوج فتاه صغيرة، لكن يبدو أن الفارق في العمر، جعل أبو الفضل فقط يشتري السمك والعسل النظيف ليقوى ذكورته، هذا ما كان يريد أن يقوله سيد محسن عن الرجل الذي اشترى كل سمكه].

شعر آسر بانتفاخ في بطنه، وصار يصدر غازات وأصوات فركض إلى أقرب جامع موجود في السوق قبل أن ينفجر، وصرت أنا وحدي مع سيد محسن.

مع رائحة السمك وغازات بطن آسر، كان الوضع لا يحتمل، فسألت سيد: تحدثت ذات عن يهودي اسمه يشبه عُشبة، ابتسم: الهاليون، الهاليون، يا أستاذ غسان، الكل يعرف قصته، كل الناس الذين يعملون

بالصيد ويسكنون شاطئ البحر، الهاليون كان يعمل في تنظيف المجاري وبناء الحفر الامتصاصية، كان ماهراً جدا وقوياً، يحفر حفرة كبيرة ويُنزل بها براميل من الصفيح ويفتح ثقباً في جدار البيت، ويخرج ماسورة تصل بين المرحاض وبئر المجاري، وكانت لديه أدوات مميزة ينظف مجرى المياه والخراطيم، كان يملك خريطة شبكة مجاري المخيم، حين تسدد المجاري وتغرق الشوارع بالمياه السوداء والمراحيض تطفح، كان يحضر مرتدياً ملابس خاصة من النايلون وينزل إلى الآبار الطويلة ويزيل العالق من أوراق وحجارة من المواسير، وقتها تفوح الرائحة النتنة، والصراصير تنتشر وتدخل كل بيت، يتحول الجو إلى شيء لا يحتمل ولا يوصف من القرف، كانت أجرته بعض الشواكل وقطع صابون (هاواي إسرائيلي) وزجاجة كالونيا "خمس خمسات" مصرية صفراء فاقعة الرائحة واللون.

كان الهاليون غريب الأطوار، حين ينتهى من العمل يلزم بيته المكون من الصفيح والخشب ولا يخرج، ولم تكن له عائلة، (لا أحد يعلم كيف جاء وسكن هنا)، لكن الهاليون كان يرتعب حين يقابل رجال السلاح وخاصة المطارد أحمد الأحمر بل كان يظل يراقبه حتى يختفى من

المكان، [أحمد الأحمر مطارد من الجيش الإسرائيلي، متهم بوضع قنبلة داخل مدرسة في تل أبيب، يقال أنها انفجرت لكن دون موت، وظل مطلوباً للجيش، وكان حذراً ويحمل السلاح] في ليلة وُجد أحمد الأحمر مقتولاً برصاصة في الصدر، ففزع أهل المخيم على الخبر، لقد كان محبوباً عندهم ومثقفاً ويعمل مدرساً، وكان يُعلّم الأولاد في المخيم بالمجان وقت الامتحانات.

لكن الرصاصة التي دخلت في جسد الأحمر كانت من بندقية قناص حسب خبراء المخيم والمفتين، صار الشك يدور حول الهاليون أنه مَن قتل أحمد الأحمر، تعجل بعض الشباب وذهبوا لبيته واقتحموه وأطلقوا رصاصة على الهاليون، وتُرك ينزف ولم يقترب أحد من البيت، وانتشرت رائحة الجثة، فأشار إمام المسجد وبعض الرجال لابد من دفن الهاليون (إكرام الميت دفنه) كما قال الإمام.

دُفن نهاراً في المقبرة، وليلة الدفن قيل إن جنود الجيش دخلوا المقبرة بسيارات كبيرة مدرّعة، وأخرجوا جثة الهاليون ونقلوها معهم، وصار

الذي أعدمه يتباهى أنه قتل يهودياً، وبعدها صار كبير المطاردين في المنطقة.

ركضنا صباحاً إلى المقبرة؛ فوجدنا فعلاً أن هناك مكان محفور والرمل مازال رطباً.

بعدها استولى أحد الجيران على بيت الهاليون وهدمه، شاهدنا مئات من قطع الصابون وعلب الكالونيا مكدسة في المكان، وبعض أدوات مطبخ، وعدد من الرصاصات، فصرنا نبحث عن البندقية لكن لم نجدها لحتى الآن.

[يبدو لم يكن الهاليون هو الأعرج! كيف يكون أعرجاً ويحفر آباراً ويقفز في المجاري ليصلحها، حتى لو كان أعرجاً لو سمعنا من الرجال الذين دفنوه أنه بقدم خشبية].

وصل آسر عندنا وكان يضع يده على بطنه، ففهم أنّي أنهيت الحديث مع سيد محسن، فشغّل دراجته وقال لي: أنا سأذهب للبيت، أشعر أن اللصيمة لصمت عليّ.

علمتُ بأن آسر يعاني من تلبُك معوي شديد، وصرت أنتظر شفاءه بفارغ الصبر، لأكمل البحث عن اليهود الذين عاشوا بيننا، وكان الهدف بداخلي أن أجد الأعرج، لأنه في بداية الهجرة اختفى ولم يَبنْ له أي أثر. وتخيلت في لحظات أنه شخصية خيالية، أو مجرد رمز، لكن حسب الصور الموجودة بين يدي يوجد رجل يقف في الوسط وحوله شخصيات، طبعاً أنا وجدت شخصيتين، (حارس البئر، والهاليون). صرت أدعو من كل قلبي أن يتماثل آسر للشفاء بأسرع وقت، لنكمل البحث، كل ما أخشاه أن أُصاب بالملل من الانتظار، وأن تخبو شعلتي في البحث عما تبقى من الشخصيات لتكتمل الصورة.

ذهبت إلى بيت آسر وطلبت منه عنوان هشام حمدي أحد العمال الذي تحدّث مسبقاً عن سيدة يهودية كانت تتجول في شوارعنا، وتزور بيوتنا وكانت تنقل العمال للعمل في المستوطنة.

[كانت بعض المستوطنات منتشرة في قطاع غزة، منها جنيتال 1، جنتال 2، نيستر حزاني، وغوش قطيف... كانت تزرع بالثمار ويوجد بها مصانع عديدة للقماش والورق وتعليب المواد الغذائية وغيرها، كانت

جميلة جداً بها بيوت صغيرة، وحدائق ومدارس وحافلات حديثة، وسيارة آخر موديل، كان العمال يسرقون السيارات بإتفاق مع صاحب السيارة الاسرائيلي، ويبيعونها في القطاع بترخيص مسروق مميز، بشرط أن تتجول بها داخل المدينة ولا تقترب من حواجز الجيش، كان لكل مستوطنة بوابة كبيرة من جهة المخيم، يُسمح للعمال دخولها بتصاريح خاصة، وكان يوجد في منطقة شاطئ البحر نقطتان لبيع الخمور والبيرة،(اً بعض العمال يحمل طابع وطنياً، فكان يرسم مداخل ومخارج المستوطنة لرجال المقاومة، فيتسلل أحدهم حاملا سلاحه ويقوم بعملية إطلاق النار داخلها].

بعد عناء السؤال عن هشام حمدي، وصلتُ للعنوان، كان يسكن في منطقة التعديات [التعديات منطقة أراضي حكومية، يأتي الرجل بعائلته على مساحة من الأرض ويضع بيتاً مكوناً من الصفيح والقماش، ويظل فيه، ومع مرور الوقت يصبح مِلكاً له، ثم يبنيه بالحجارة والإسمنت].

كان هشام يجلس على عتبة البيت، يدخن سيجارة من تبغ شامي، رائحته تعج بالمكان، قبل أن أصل له بعشرة أمتار، وجدت بَسطةً لبيع الدخان؛ فاشتريت علبة دخان. جلست معه وأهديته علبة الدخان، كان سعيداً جداً [التبغ الشامي انتشر بين المدخنين في أسواق غزة، وبسبب سوء الوضع الاقتصادي، وغلاء ثمن الدخان المستورد].

- هشام.. مرة تحدثتَ عن سيدة يهودية كانت تعيش في شوارعنا، وتزور عمال المستوطنات وتشاركهم الأفراح والأحزان؟

- أذكرها، اليهودية (سمحى ليفي) أو راحيل، كانت تملك شاحنة من نوع بيجو تأتي في الشوارع وتجمع العمال وتقلهم للعمل في المستوطنة، كان الكل يحبها، وشاحنتها مشهورة حين تدخل الشارع الكل يطرح عليها التحية، كانت طويلة وسمراء وتلبس بنطال الجينز الأزرق والسترات الضيقة الملونة، كانت تدخن كثيراً، ويميزها عطرها، كانت زوجات العمال تغار منها، أنثى بمعنى الكلمة، وحين تحصل مناسبة عند أحد العمال الدائمين تشاركهم وتُرسل المال الكثير كهدية للعامل، كانت لا تخاف المسلحين ولا

رجال المقاومة، لكن في أحد الأيام وُجدت جثة أحد العمال ملقاة عند مجمع القمامة، وأذيع أن هذا العامل كان مرتبطا مع الاحتلال بواسطة سمحى ليفي ،أثناء التحقيق مع هذا العامل اعترف أن مجموعة من عمال سمحى يتدربون على السلاح داخل المستوطنة، فصار كل يوم ينتشر خبر عن عمال سمحى بأن أحدهم قتل أو منع من العمل، لكن الشيء الخطير الذي لم نتوقعه أبداً أن تكون سمحى ليفي (خنثى) _ (الصدر والوجه امرأة، والوسط والأقدام رجُل)، وقد اعترف بعض العمال أن ليفي كانت تتحرش بهم بهدف اسقاطهم في وحل العمالة، تغريهم بصدرها في بداية الأمر وفي منتصف الحدث تتحول إلى رجل لا يرحم في العلاقة، وقيل أيضاً كانت تُصوِّر العمال في أوضاع مخلة! فيخاف العامل من الفضيحة؛ فكان يأتي لها بالمعلومات والأخبار عن المخيم وخاصة عن حَمَلة السلاح.

- سمعت أنها قُتلت من أحد العمال.

- نعم الذي قتلها جارنا عطية، كان وسيماً جداً يشبه ممثلين السينما الأمريكية، له شعر أشقر، وأبيض الوجه بعيون زرقاء ومهندم الثياب كل بنات المخيم حلمن به، هو رجل ذكي يدبّر الخطط للخطف، والاشتباك مع الجنود، وله هيبة بين المسلحين لقوة شخصيته، اقتنع عطية أن يعمل داخل المستوطنة ومن ثم يغري سمحى بجماله وأناقته ويحضرها لنا، كان الكل متأكداً بأن عطية سينجح في المهمة، بالفعل ذهب عطية إلى البوابة الكبيرة للمستوطنة ودخل كأنه عامل، وشاهد سمحى وصار يتبادل معها الحديث، وانجذبت سمحى له كثيرا، لكن عطية لم ينفذ الخطة بسرعة، يبدو أن عطية أعجبه جسد سمحى وصار يتبادل معها الحب فترة طويلة، غاب أكثر من شهرين عن البيت، حملة السلاح قلقوا جداً على عطية، وحاولوا أن يسألوا عنه، أغلب العمال قالوا انهم رأوه يجلس مع سمحى ودائم الالتقاء معها في سيارة سوداء خاصة، أصيب أهل المخيم بالإحباط من الأخبار التي تصلهم عنه.

- هل استمر انتظار أخبار سمحى وعطية طويلاً؟

- في أحد الأيام خرج أحد الشباب من الاعتقال الإداري بتهمة إلقاء الحجارة على سيارات الجيش وتعليق صور الشهداء على الجدران، وأخبرهم أنه شاهدَ عطية في السجن وتحدث معه، أخبره عطية: أنه قتل سمحى ليفي وقطع عضوها الذكري، وأخبره أيضا أنه في بداية الأمر أحب سمحى وصار عشيقاً لها، لكن سمحى لم تستمر بالحب وكانت تُصوّره وأرادت أن يعمل معها في جهاز المخابرات الاسرائيلي، لكنه قتلها واعتقله أمن المستوطنة.

- الآن عطية في السجن؟

- أخذ حكماً عالياً وقُتل في السجن بتهمة أنه عصفور [عصفور السجن هو الشخص الذي ينقل أخبار السجناء لإدارة السجن]. أنا متأكد أنه مظلوم وبريء من تلك التهمة، لأن السجون لا ترحم.

- ألم يتحدث أحد من عمال المستوطنة عن يهودي أعرج كان موجوداً في هذه القصص؟

- مرة أنا ركبت في شاحنة سمحى، وكان يجلس رجل بجوارها في الكرسي الأمامي، وحين وصلنا إلى البوابة، نزل من الشاحنة وكان يعرج، لكن لم أره مرة أخرى، ولم يتحدث عنه أحد!

[هل تذكرون "راحيل" التي كانت تقف أمام الحانة الروسية، وكانت سبباً في قطع قدم عزرا، يبدو أنها سمحى ليفي، وعزرا ظل يتواصل معها، اليهودي يظل طوال حياته في مهمات لأجل وطنه، كالظل دائما ثابت بالوجود ليلاً نهاراً].

لإكمال سيرة السيدتين اللتيّن ظهرتا في الصورة مع الأعرج، سوف أذهب مع آسر هذه المرة لأنه تحسن ورجع لعادته القديمة في لَمّ الشواكل، والكذب على البائع والمشتري، أصر آسر أن يكمل معي مشوار البحث لأنه حين سمع قصة راحيل وما في أحداثها من إيحاءات جنسية، [كان يقول: ضاعت مني المتعة]

كانت جهتنا إلى راجي بنور [راجي بنور كان ضحية كرت المؤن، حين هاجر الناس من بلادهم بفعل الحرب ليسكنوا الخيام والمخيمات، صارت وكالة غوث اللاجئين توزع السمن والسكر والزيت والصابون

والدقيق والمعلبات والحليب الناشف وتوزع العمل المؤقت والنقود على حاملي كرت المؤمن (كرت لاجئ)، جدّ راجي كان من العائلات الأساسية (أهل البلد) ، بدل بيته في منطقة المركز (البلد) بحمار أعرج وطنجرة وبابور كاز وسكنَ المخيم، ليحصل على كرت لاجئ طمعاً في المعونة، وحصل عليه وفقد بيته القديم التي تحول فيما بعد إلى مركز تجاري، لكن حال اللاجئين ازداد سوءً من الفقر والعدم]

راجي دائم التأفف لا يعجبه شيء، معارض بطبيعته حتى على شكله وحين يسرد جريمة جدّه وكيف تحول من مواطن إلى لاجئ، يفقد أعصابه، كان دائم الحلم والحديث عن السفر لأوروبا، غرفته عبارة عن معرض صور لفنانين وجميلات، ويكتب على كل صورة جملة كبيرة المعنى كأنها من كتب الفلسفة، صديقي آسر لم ينتبه إلى الكلمات لكن كان يدقق في الصور ويسأل لمن هذه الصورة؟ كان راجي يعجب بأسماء أجنبية صعبة النطق، وكان يتحدث عن الوجود والعدم والطبيعة ونظم العقل العربي، بداية التكوين واللا منتهى، بصراحة هذا العلم صعب علينا وخاصة آسر، حاولنا أن نعيده إلى طبيعته ونسأله عن السيدة اليهودية التي سكنت بجوارهم.

بكل هدوء وراحة وهو يبتسم قال: سارة، سارة اليهودية! قبل عدة سنوات هربت إلى إسرائيل، كانت جميلة جدا، جاءت عندنا مع جارنا وسيم، كان يعمل في حانة لبيع الخمور، وتعرف عليها، جاء بها إلى الحارة وقال: أنا تزوجت من اليهودية، في بداية الأمر كان الوضع غير محتمل، واجه مشاكل مع عائلته، وضربوه أخوته، لكن مع المدة تكيفت سارة في العيش وتكيف الناس في الحارة على وجودها، حتى نساء الحارة علموها كيف تلبس المنديل، وسجلوها في عيادة الوكالة حين حملت من وسيم [عيادة الوكالة مطلية باللون الأزرق نسبة للون علم الوكالة الدولية، أي سيدة تحمل لابد أن تسجل فيها لتحصل على أغذية خاصة بالجنين تسمى "الشرحات"، وحتى يضاف المولود في كرت المؤن] وصارت تذهب للسوق معهن، وتعلمت العربية بسرعة، علّموها الغسيل والطبيخ وإشعال النار وخبز الطابون، صارت تصوم رمضان، وتنظف الكرشة ورأس العجل، أصبحت سيدة مخيم من الدرجة الأولى وفقدت أنوثتها، كان لوسيم أخ صار يتردد على الجامع كثيراً، وصار له أصدقاء يلبسون جلاليب بيضاء قصيرة وقبعات صوف ويطلقون لحاهم ويحلقون شواربهم، وصاروا يكفرون ويحللون

ويحرمون كيفما أرادوا، وفي مرة تعارك وسيم مع أخيه بالعصى وملأ الصراخ الحي، وصار وسيم يصرخ بصوت عالي: زوجتي مش كافرة، سارة مش كافرة [أخوه طلب منه أن يطلّقها لأنها يهودية، وهي كافرة].

لكن سارة تركت طفلتها وفي ليلة ليس لها قمر اختفت من المكان، وعادت إلى إسرائيل، وزوجها وسيم لم يستطع منعها، لأنها هربت ناحية المستوطنة، وتركت خلفها بنت جميلة الآن عمرها عشر سنوات، هي جميلة أيضا مثل أمها، وصرنا نطلق عليها سارة الصغيرة.

يقال إن سارة اليهودية حاولت أن تأخذ طفلتها عبر الصليب الأحمر، لكن لم تستطع، ومازال في الأمر مد وجزر.

يبدو أن الأعرج لم يكن مع سارة، ولم يعلم بوجودها، لكن السؤال الذي حير آسر وسأله لراجي: كيف دخلت المستوطنة بسهولة وفُتحت لها الأبواب؟

[لا تنسى أن اليهودي حين يواجه مشكلة عليه الذهاب إلى المعبد].

❋❋❋❋

(هناك خط رفيع) صار آسر يكرر هذه الجملة بعد أن سمع قصة سارة، كاد أن يتفجر من الغيظ كلما تذكر أنها هربت إلى المستوطنة، رغم أنها ابتعدت عن إسرائيل سنوات طوال.

[في فترة بدأت حياة المخيم تتحول من الكرميد والجدران القصيرة والشبابيك الحديد الخضراء إلى بيوت بجدارن عالية مسقوفة بالأسبست، ونشطت أعمدة الكهرباء وشبكات المياه، وبعض البيوت صارت عبارة عن طابقين من الباطون، بدأت تجارة مواد البناء أكثر رواجا بين الناس، من كان يعمل في مجال البناء داخل إسرائيل، صار يعمل في البناء والترميم داخل المخيم بعد الإغلاق الذي كان يطول ويمنع العمال من الدخول إلى هناك، انتشرت أكوام الرمل الناعم الأصفر وأكوام الحصى في الشوارع] كان سر وقتها يجلس على كومة الرمل الناعم الأصفر ويردد ويحلل كل ما يدور من شخصيات.

عدل جسده وكان بعض الرمل قد التصق بثيابه، وأشار إلى غسان: هيا نذهب إلى جبر النادي ليخبرنا قصة الشحات اليهودي (المتسول) هو الآن موجود عند ملعب كرة القدم بالقرب من السوافي نهاية المخيم.

[جبر النادي دخل إسرائيل وهو صغير، وكان يعمل في نادي هبوئيل تل أبيت الرياضي، كان ينظف الحمامات ويغسل ملابس اللاعبين، كل يوم خميس حين ينتهى العمل يحضر معه كيساً كبيرً من الأحذية الرياضية والشورتات والبلايز الرياضية، وكرات القدم والسلة، وكان يتردد عليه الفتيه الذي يلعبون الكرة ويشترون منه لوازم الرياضة، يوما بعد يوم صار خبيراً في الرياضة ويتابع الفرق الرياضية الإسرائيلية، وكان يشارك في لعب الحظ في اختيار الفريق الفائز للفوز بملايين الشواكل (اسم اللعبة توتو وحش كاقت)، لكن فقد عمله في النادي وصار يركض خلف الفتيان الذي يلعبون الكرة، وشكل فريقاً رياضياً وصار يتنافس مع فرق أهل البلد أو المخيمات الأخرى، وجبر هو من العمال الذين تحدثوا عن المتسول اليهودي.

كان ملعب المخيم لا يبعد كثيراً، وصلنا إلى المكان، وكان جبر يتوسط مجموعة من الفيتان يستعدون لمباراة بين فريق من أهل البلد، كانت الأجواء مشحونة حد الحرب، فهناك ثقافة منتشرة وسوء فهم بين المخيم والبلد، (مواطن ومهاجر) بدأت اللعبة عنيفة، وحَكَم المباراة كان متعاطفاً مع فريق المخيم، فصار عراكاً بالأيدي والأحذية، ركض جبر

خوفاً من الضرب، ركضنا أنا وآسر خلفه، بعد عشرة دقائق من الركض، انتبه أننا نركض معه، ابتسم حين شاهدنا، كنا نلهث ولسان آسر تدلى، أما جبر كأنه لم يكن يركض، فقال: نحن متعودون على العراك مع المواطنين، وأكمل الكلام هم بصراحة لعيبة، كلهم يلبسون أحذية رياضة، أم أولاد المخيم يلعبون حفاة أو بالشبشب، أنا رشيت الحكم بعلبتين تونة من معونة الوكالة، فاحتسب لنا ضربة جزاء، المهم حصلنا على المباراة.

- يا كابتن جبر نريد.. أن نسألك عن الشحات اليهودي؟

- والله يا استاذ غسان، خدعنا هذا الشحات، (أبو كرش) كان دائم الجلوس عند الجامع الكبير [الجامع هو الوحيد في المدينة لفترة طويلة] وكان يتسول من المارة ويتحرش بالناس، ذو وجه مغبر وثيابه مقززة، وكان يرتدي سترة طويلة تحوي عشرات الأشياء، كأنها دكان بقالة صغيرة، أي شيء تريده، فواكه ومعلبات وخضروات وبقوليات، خبز، وأوراق قديمة، كان يأخذ الشواكل من الطالع والنازل مثل المنشار، وفي الليل يختفي، ولم ينتبه له أحد.

- كيف عرفتم أنه يهودي، ماذا فعل؟

- أولاً هو اختفى بعد "طوشة" كبيرة بينه وبين متسول آخر يطلق عليه العريان [العريان رجل مجنون يركض في الشارع عارياً دون خجل] فطعنه العريان بسكين في بطنه، فصار يركض أبو كرش بسرعة حتى اختفى ولم يعد للمكان، حزن الناس على اختفائه، بصراحة كانت كل النساء تتبارك منه، أي سيدة تريد أن تحمل أو تتزوج تعطيه شواكل فيدعو لها، فتستجاب دعوته، واختفى تماماً، بعض الشباب الذين كانوا يذهبون إلى مقابلة المخابرات الإسرائيلية في المركز قالوا: أنهم شاهدوا أحد الضباط يشبه أبو كرش كثيراً، وشاب آخر قال: إن أبو كرش حقّق معه، وحين انتهى من التحقيق قال للشاب: هل تعرفني؟ رد الشاب وكان شجاعاً: أنت تشبه الشحات أبو كرش، فضحك في وجهه وصفع الشاب على خده بقوة قائلاً: أنا الآن الضابط دانيال كوهين، وبعض الشباب لاحظه يركب سيارات الجيش في المقدمة ويحمل مسدساً وكان يصيب الشباب بالرصاص في الرأس، كان قناصاً ماهراً.

- يا كابتن جبر، هل كانت له قدم خشبية، أو كان يعرج؟

- على ما أظن كان سليماً، أريد أن أعود إلى الملعب وأُصلح اللاعبين فيما بينهم، كلنا نظل أولاد مدينة واحدة.

[وقت الاختفاء وترك الزحمة تتعلم أشياء لا يتعلمها غيرك، كان أبو كرش متسولاً في الصباح ودانيال في الليل.

****

كنت أجلس في الورشة وأقلّب صور وأوراق الطبيب اليهودي الأعرج، أصابني شعور بأنه شبح، لن أجده، رغم كل ما حولي من دليل يقال إنه موجود وأنه داخل غزة، دخل آسر دون أن يطرق باب الورشة، وخلفه رجل يجر دارجة كبيرة وقديمة (أبو جحشين)، توقعت أنه زبون من زبائنه يريد أن يشتري منه الدراجة.

حين دققت في الملامح عرفت أنه سعد أبو حجر، كان زبوناً دائماً في سوق الدراجات المستعملة (رابش الدرجات) عاشق الدراجات، خبير الإطارات، أمهر رجل في المخيم يصلح التروس، لو أعجبته دراجة لابد أن يشتريها، وفي أوقات ومن شدة حبه للدراجات كان يسرقها ويعطلها ويرجعها لصاحبها ثم يشتريها بحجة أنه عطلانة.

لاحظ سعد الصورة الكبيرة، وصار يدقق النظر فيها، وبدون سابق انذار قال: هذا اليهودي أبو طنطا صاحب محل بيع وتصليح الدراجات، يا الله كان عنده أمانة في البيع والشراء، وأجود أنواع الدراجات عنده، كل يوم جمعة كان يتجمع معجبو الدراجات عنده لأنه

يأتي بمجموعة من الدراجات ويعرضها للبيع، كان أغنياء المخيم يترددون على محله ليشتروا لأولادهم الدراجات، الكل كان يثق به، لكن قبل عامين في يوم الجمعة اجتمعنا أمام محله لنرى البضاعة الجديدة، لم نجده!

لم يصبر آسر حتى يكمل سعد كلامه، أين ذهب أبو طنطا؟ وأنتم كيف عرفتم أنه يهودي؟

نحن لم نعرف أنه يهودي إلا بعد أن اختفى، كنا نعرف عنه أنه جاء من مصر (يحكى اللجهة المصرية)، ودكانه قديمة، يبدو أنها كانت قبل المخيم، لكن بدأت الشكوك، حوله من الإشارات والدوائر التي ترسم ليلاً على الجدران وهذه العلامات عبارة عن نقاط ليستدل الجيش بها للوصول لهدف، الكثير من الشباب اعتقلوا، رغم أنهم كانوا مختبئين في أماكن يستحيل أحد أن يعرفها.

وزاد الشك حين اعتقل المطارد الأعور [الأعور هو أحد مطاردي المخيم، وكان تابع لتنظيم خاص لتصفية العملاء، وكان قلبه قوياً جداً، وكان متخصصاً بقتل النساء، وكان يجهز عليهن دون أن تسمع

صوت رصاص، كان بعد التحقيق مع المرأة، يضع رأسها بين وسادتين من القطن ويطلق الرصاصة فلا يخرج صوت، الأعور كان يشكو من مرض البواسير، وكان يتألم كثيراً، فقد طلب من ممرض المخيم أن يُجرى له عملية البواسير في مكان سري (ممرض المخيم، تعلم التمريض في جامعات مصر وصار طبيب المخيم، يقوم بالختان للفتيان، وإزالة عيون السمك من الأقدام، حبوب الثآليل، عن طريق الكي) بعد أن انتهى من العملية للمطارد، نصحه الممرض أن يضل جالساً لمدة أسبوع وفي الليل يضع ملحاً في ماء ساخن ويجلس عارياً في الماء لمدة نصف ساعة (مغطس)، وفي الليل تعرى الأعور وبدأ بالعلاج، وأثناء ذلك اقتحم الجيش البيت، واعتقلوه، وأخرجوه عارياً، وصار الرجال يركضون خلفه يحملون بطاطين ليغطوه ويستروا عورته.

[في النهار ينتشر دائما حملة السلاح في الشوارع، لكن في الليل حين يداهم الجيش المخيم يختفون]

بعد أن غادر الجنود واعتقلوا المطارد الأعور، جاءت سيدة وقالت بصوت عالي: مشيرة لجدران البيت، بأن هذه الرسمة الموجودة (حرف

وأرقام بشكل دائري) هي حديثة الرسم، من رسمها هو من أبلغ عن مكان الأعور. كل هذا الحدث كان ليلة الجمعة، وبصراحة من كان يملك اللون الأسود للطلاء هو أبو طنطا، كان يرش اللون الأسود على منطقة الصدأ في الدراجة، في يوم الجمعة ذهبنا عنده، وجدنا محله مغلقاً. حضر رجل ملثم وكسر باب المحل فوجدنا عشرات الدراجات والطلاء الأسود، وصار يوزع الدراجات وأنا أخذت هذه الدراجة (أبو جحشين) دراجة قوية لا تعطل وغالية الثمن، يمكن أن تضع على الكرسي الخلفي صندوق كبير، ويمكنك أن تحمل صديقك معك وتأخذه إلى رحلة بعيدة.

مسك سعد الصورة مرة أخرى، وقال بصوت به رجفة: الرجل صاحب القدم الغريبة أيضا شاهدته مرة عنده بالمحل! كان يجلس معه فقط وينظر إلى الأرض، كانت له قدم تشبه الصورة.

قفز آسر وأمسك برقبة سعد: فقط مرة واحدة، قل ما تعرفه عن هذا الرجل، نفض سعد رقبته من يد آسر: أنا لم أره إلا مرة واحدة.

ركب سعد دراجته أبو جحشين وغادر.

أغلقت كل شيء ورائي، كنهاية فصل الشتاء

حين يرحل، يأخذ معه الأمسيات ونكهة النار، ولذة القهوة، والسترات الصوفية، تنسى متعتك وأنت تمشي داخل برك المياه في المخيم، أغلقت كل شيء ورائي مثل بوابة المدرسة الزرقاء في نهاية العام الدراسي، لا تريد أن تسمع صوت الناظر في طابور الصباح، ولا تريد أن تبتسم لمدرس الرياضيات خشن الصوت، كأنها مرحلة في حياة لا مادة لها خليط بين الصلب والسائل، لابد أن تقول بصوت عالٍ يكفي، قدمي لا تقدر على قفز الجدران، ورأسي لم يعد يتسع لتخزين كل هذه الشخصيات التي تشبه حبة البصل إذا استعملتها لا بد أن تبكي منها.

تركت صديقي آسر يتقافز كحبات الذرة (الفيشار) في المقلى قهراً لأنه لم يجد الأعرج، وشخصيات اليهود الستة خلفي كانت تذوب كأنها تماثيل من رمل صنعها طفل على شاطئ البحر، أنا أشبه جندي في الحرب أصيب بسبع رصاصات، الطبيب أخرج ستة وترك السابعة تسبح في جسدي، كلما حاولت أن أرجع إلى عملي القديم وحياتي

البسيطة، ألمها يمنعني من الحركة، كل أطباء الأرض نصحوني أن أخرجها حتى لا أصاب بإعاقة دائمة.

هذا الأعرج الذي ظهر في الصورة وفي بحثي ظهر كطيفٍ عابرٍ، أو ساعي بريد لم يظهر كثيرًا والعشاق والمتلهفين ينتظرونه.

أغلقت كل شيء ورائي وركضت للسيد نسيم الكرتاوي، حان وقته، هو النهاية لما بدأت، لو رعدت وبرقت طوال اليوم فهو المطر الذي يختم هذا القلق.

السيد نسيم هو يمثل حكمة الرجال الكبار المتزوجين الذي يلتفون حول عريس المخيم، يهمسون في أذنه كيف يحوّل عروسه من فتاة تلعب الحجلة مع صديقاتها إلى سيدة تقدر أن تصنع طبيخاً وهي مبتسمة.

حملتُ ما كتبت من أوراق وصور وأختام وأيضاً وضعت القدم الخشبية في كيس كبير، وتوجهت مسرعاً إليه.

كان كعادته، يجلس وحوله رفاق الرصيف، يحمل كل المتناقضات في شخصيته، صامت وثرثار، نشيط وكسول كدب الكولا، تشعر كأنه

عاشق لكل النساء لكن الحقيقة بكل ما أوتي من قوة وجاذبية لم يعرف سوى زوجته.

يبدو أنه لمحني من بعيد، حاول أن يأخذ مكاناً فارغاً، يوجد به مقعدين، كأنه يخطط لكل شيء، لوح بيده لي، فجلسنا معاً، بلحظة أسرع من البرق والرعد اختفى الجميع من الرصيف، أنا وهو فقط، هذا المشهد يذكرني بمنع التجوال الذي كان يفرضه الجيش على المخيم، بعد أن ينادي الجندي بميكرفون (ممنوع التجول) لا أحد من ذكر أو أنثى يبقى في المكان، لا صغير ولا كبير، تصبح الشوارع خالية فقط تصفر بها الريح، حتى القطط والعصافير تشارك أهل المخيم بالاختباء.

(سيد نسيم هذا ما كتبته طوال الفترة التي تركتك بها، وهذه الصور والأوراق والقدم الخشبية موجودة في هذا الكيس لكن لم أجده).

بدأ يقلب الأوراق، لاحظت من أرقام الصفحات أنه قرأ صفحة رقم واحد، ورقم خمسة، ورقم ثمانية ثم عاد لصفحة سبعة وقرأ صفحة تسعة ثم عاد لصفحة واحد، مزاج غريب حتى في القراءة، ووضع الأوراق جانباً، وصار يدقق في الصور، وسحب صورة صغيرة لليهودي

الأعرج مع شخصية ترتدي كوفية، ورفعها في وجهي وقال بهمس: صغائر الحصى تدل على الجبال، والجداول الرفيعة تدل على النهر الجاري!

عليك الركض للبداية، أين وجدت القدم ستجده، أول لحظه شعرت بالقلق منها؛ ستكون راحتك.

(لكن أنا لا أتذكر المكان الذي وجدت به القدم، مرّ وقت طويل، ولم أفكر به حتى لو لحظة)

الأقدام يا غسان لها ذاكرة أيضاً، اتركها وهي ستصل بك للمراد، الرصاصة التي تخرج من فوهة البندقية ليس لها عقل يدلها على لجسد المطلوب، لكن الجسد التي سيصاب بها يملك جاذبية ليلتقط كل نحاس الكون.

أصبت بانفعال كبير، كأني شاهدت فيلماً من القتال، تحولت إلى مقاتل والدم يفور في شراييني، كأني أضع قناعاً على رأسي وفي يدي قفازتان، أريد أن أصارع كل من حولي، ركضت وصرت أضرب

الأشجار وأركل الحصى، وأسابق قطط الشوارع وأقفز عالياً، أعلى من سطح منازل المخيم.

كأن شيئاً ممغنطاً دخل في رأسي يشدني إلى المكان الأول، إلى بداية القلق والبحث، إلى أول الحكاية أنا أشبه الطائر المهاجر لا يعرف سوى جهة الهجرة حتى يضع بيضه ويغادر.

كالصدفة تكون بالمكان، ونفس الإحساس الذي احتلك في أول مرة يتكرر بشكل عنيف كصعقات كهربائية ترج جسدي.

البيت الذي وجدت به القدم الخشبية بدأ بالتآكل، ليس من عوامل التعرية أو فعل طبيعي، لكن من فعل الفتيان الذين يبحثون عن بقايا الحجارة وأسياخ الحديد، فهم يخرجون قطع الحجارة ويحولونها إلى حصى ويبيعوها لمعامل صناعة البلوك، أما الأسياخ فيعدلونها ويبيعونها لتجار الحديد وأدوات البناء، لم يبقَ في المكان سوى أرضية البيت الترابية، وبعد الملابس المدفونة تحت التراب ولا يظهر منها سوى جزء صغير، وجدت في المكان كأساً من الزجاج مكسور القاع، وملعقة كبيرة منقوش عليها حروف عبرية، وبعض قطع خشبية تعود

إلى خزانة قديمة، وبعد الأسلاك المبعثرة التي تشبه القفص الصدري، وعشرات الكتب الممزقة مبعثرة الأوراق في كل مكان وقد أصابها اللون الأصفر واختفت حروفها، الكتب مكتوبة بلغات كثيرة منها الفرنسية والإنجليزية والعبرية، وبعد صور لأعشاب وبقايا صور لمخطط حيوانات، وعشرات العلب التي تشبه علب الأدوية، القبعات المثقوبة والمهترئة التي تحجز جزء كبير من المشهد.

ابتعدت عدة أمتار عن المكان، والخيبة تتدلى من عيوني كعناقيد عنب حامض، ودخل المكان مجموعة من الفتيان بصحبة كارة وحمار ومطرقة كبيرة وبدأوا يحطمون ما تبقى من الجدارن ليحولوها إلى قطع صغيرة من الحجارة.

مرّ أمامي رجل يدفع عربة تحمل دلوين أسودين كبيرين، بهما أكياس وبلاستيك وأوراق وعلى رأسه كوفية، صار قلبي يدق من الفرحة، مسكت بيده وسحبته إلى ناحيتي، وكانت المفاجأة أنه معالي حسن أنه عامل النظافة الذي يجوب في الشوارع وعلى البيوت يأخذ أكياس القمامة ويفرغها في المجمع الكبير أنا أعرفه جيداً، كان يحضر إلى

المخيم ويلف على البيوت، فهو يعمل في قسم النظافة التابعة لوكالة الغوث لكن فترة عمله في الصباح فقط [معالي حسن، كان أبوه يحلم أن ينجب ولداً ويطلق عليه اسم معالي، حتى حين يكبر يصبح معالي الوزير، معالي الباشا، معالي القانون، فقد كان جده قبل الهجرة من أغنياء البلاد، وكان يعمل مع الحكومة البريطانية، وكان كل أهل البلاد يقدرونه ويحترمونه، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، جاء معالي الحفيد، ومات الأب وعمل معالي في النظافة]

- معالي لماذا تأتي إلى هنا، أنا أعرف أن عملك ينتهي ظهراً؟

- أنا بعد العمل أخرج بعملٍ خاصٍ أحمل أكياس القمامة من البيوت بمبلغ مالي شهري إضافي لمن يرغب.

- هل كنت تأتي إلى هنا قبل قصف هذا البيت؟

- أنا أعرفه جيداً وصاحب البيت أيضا، كان رجلاً كريماً يعطني المال وأكياس القمامة، لم تكن قمامة بل كانت خيرات، طعام ومعلبات وملابس وكل شيء، كانت قمامته كنزاً وكنت أستفيد منها كثيراً.

- هل تعرف صاحب البيت، كيف شكله؟ وماذا كان يعمل؟ ومن كان يتردد عليه؟

- هو كان أعرج وله قدم خشبية، وكان يقال عنه الغريب، لبيته بابان، بابٌ يطل علينا وباب لا نعلم كيف يخرج منه، كان يعمل كل شيء، مرة تشعر أنه طبيب، بائع، يفهم بالتدريس، كان يقرأ كثيرا، ومرات تشعر أنه مشعوذ، لأن النساء تتعالج عنده من السحر والجن، كانت تتردد عليه شاحنة بيجو تقودها سيدة، كان يخرج من المنزل وهو يقود دراجة، يرتدي القبعات كثيراً، مرة شاهدت سارة الجارة الطيبة في المكان، وحين سألتها: لماذا أنت هنا فهي تعرفيني؟ ردت: أريد أن أتعالج، كانت ترتدي منديلا وقبل أن تدخل بيته تخلعه، وكان يزوره رجل ذو رائحة مثل رائحة المجاري، كنت أتحدث معه كثيراً، في مرة طلبت منه ماءً، فجلب لي ماء طعمه لذيذ بارد، قلت له حتى ماؤك غريب، قال هذا من ماء بئر 12، وفي يوم مساءً كنت أود أن أطلب منه مالاً مقابل عملي عنده، دخل عليه رجل مقرف كأنه شحات يسيل الدم من بطنه، خفت وقتها ولم أجرؤ أن أطلب منه.

- لماذا قصف بيته، وأين ذهب، هل مات؟

- والله حسب القصص الذي سمعتها عن القصف، أن الشك بدأ... بيته يخرج منه صوت تشويش كأنه جهاز اتصالات وأنه نقطة لوجود العملاء والجواسيس، فصار الملثمون يراقبون البيت ليلاً، وأنا حُقق معي من رجل ملثم، وقال لي: ماذا تعرف عن الأعرج، وصادر كل القمامة التي معي.

- هل تعلم يا معالي أنه الأعرج، كان طبيباً يهودياً!

- يهودي، يهودي، الآن الملثمون راح يقتلوني لأني تحدثتُ معه وعملت عنده في التنظيف.

- لا تخاف لا وقت الآن لقتل جديد، لأن القصة وضحت، هو عزرا اليهودي الطبيب الأعرج الذي جاء من فرنسا ليعمل عندنا بوجه آخر ودخل قطاع غزة مرة ثانية بعد الهجرة عام 1948، وكان حلقة اتصال بين كل اليهود الذين عاشوا بيننا [انتهى عمله حين انكشف أمره وعاد إلى إسرائيل وقصف بيته حتى لا يبقى له أثر، ويظل اليهود ذكرى إلا أن يأتي أحد وينبش الماضي].

لا أعلم هل أنا سعيد أم حزين، أو بدون شعور، دائما النهايات المشوّهة والتي تكون بها أبواب مغلقة تجعلك حزيناً، وقد تجعلك سعيد قد يأتي أحد من بعدك يفتحها لغيرك، في الظاهر تبتسم لأنهم كانوا لطفاء يركبون في سفينة الإنسانية، لكن حين تدقق في هيكلها تتأكد أنها بنيت من أخشاب أشجار لا ثمر ولا ظل تستفيد منهما.

أنا كرجل حزين يودع ولده في حافلة السفر، حزين عليه لأنه يترك فراغاً في البيت، لكن في لحظة يبتسم حين تأكد بأن ولده فرّ من الجحيم.

كما توقعت في النهاية وبعد أن وجدت ما أردته من الأعرج، أجد السيد نسيم الكرتاوي في آخر الشارع يفتح ذراعيه ليعانقني لأني شعرت بنهايتي وأن الصفحات ستغلق عليّ منذ هدأ القلق داخلي من البحث.

كما تصورت هو ينتظرني، بثياب أنيقة كأنه في حفل زواج من أميرة، وحضنني وكاد أن يكسر قفصي الصدري، وقال بصوت به دموع [شكراً يا غسان] لقد كنت بطل رواية من النوع الممتاز، كنت تنفذ ما

أطلبه منك، صنعتك لهذه المهمة، وكنت مبدعاً في الحركة ونقل أفكاري وتهوري.

أعلم يا غسان أنك تريد أن تسألني مئات الأسئلة: أولاها لماذا أحببناهم رغم أنهم غرباء عنا؟ ولم تقدمهم بالشكل العادل، سأجيبك أن الشر والموت والتيه والفوضى والملامح الحزينة، وبقاء المخيم، وانتشار أسلاك الكهرباء دون كهرباء، وانقطاع الماء وانتشار الكابونات، وعدد المدخنين المتزايد، والحدود التي تنقص، والمطبات المنتشرة في شوارعنا، والفتيات المرهقات من الأحلام، والشاب الذي مات فجأة بدون سبب سوى أنه فكر في الغد، نهيق الحمير في الصباح، فزعنا من المجانيين، المرض الذي يزورنا كل يوم، شكل مستشفياتنا العاق، شكل مقاعد الدراسة الرث، انقطاع السمك في بحرنا، هذا الوجع الذي نعيشه وينخر في عظامنا، ولا نجد له علاجاً سوى حبوب المسكن الذي نأخذه من عيادة الوكالة كل هذا بسبب الغرباء الذين جاؤوا لنا كزوار ثم طردونا من أرضنا؛ لنعيش في المخيم ونُصَاب بمتلازمة النقص الدائمة.

آخر شيء يا غسان أريدك أن تزور كل الشخصيات التي شاركتك الرواية وخاصة آسر، أعلمُ أنك متفاجئ من طلبي، لكن اعلمْ بأن هناك عالم وأقوام لم يُكتشفوا بعد (عائلة أبطال الروايات) جدك الأول هو بطل أول رواية في التاريخ، وأنت الآن انضممت لهذه العائلة التي تنام في الورق الأبيض.

****